

مكتبة نوميديا 194

Telegram@Numidia_Library

ربيعة جلطي نادي الصنوبر

رواية



نادي المنويز

نادي الصنوبر

رواية

ربيعة جلطي



الطبعة الأولى

1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0553-9

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الاختلاف
Editions Elkhitlef

149 شارع حسبية بن بو علي

الجزائر العاصمة - الجزائر

هاتف/ فاكس: 21676179 213

e-mail: editions.elikhitlef@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. Ltd.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: bachar@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

التنفيذ وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+961-1)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+961-1)

اِسْـدَرَاءُ

إلى عثمان بالي ، زرياب الطوارق .. جرفتک
مياه وادي جانيت ذات طوفان..فارتفعت
نجما.. تطل من عليائك على الصحراء .

باب واقعة الوسيم

بدون سابق إنذار، تفتح «الحاجة عذرا» باب شقتنا، فتصل إلى سمعي وسمع البنات حشرة شتلة المفاتيح التي ترافقها دوما، وكأنها سجان يقط.. والحق أنها سجان طيب لا وجود له في الواقع، تأتينا بالشاي والحلوى والحكايات والضحكات النادرة في حياتنا، فنقهقه حتى تكاد صدورنا تنشق وتنير، وتثر شيئا من الفرح النادر في يومياتنا. وتعلمنا الكثير، وبصوتها المرتفع تنادي:

- واش يا بنات نتاع الزمان.. رقدتو بعدا؟؟ آيا نوضو نوضو..
ضاجة مثل الرعد، تدخل «الحاجة عذرا» الصالة بألبستها الفضفاضة ذات الألوان المتعددة، يغلب عليها الأسود الليلي البراق، أطرافها تطير في كل مكان حتى كأنها تجر جر وراءها الأشياء، إلا أن القماش الهفهاف العريض يمر مثل الماء مداعبا وسائل فوق كل شيء دون أذى، ومن كثرة ما ترفع مناديلها حول كتفيها، تمتلئ الأمكنة بروائح المزيج من طيوب صحراوية، لا تشبه في شيء العطور الفرنسية المغشوشة التي تتنافس على شرائها من سوق الطرباندو، كلما سمحت إمكانياتنا بذلك.

تلج الصالة وبين يديها سينية كبيرة نحاسية، تحتضنها بعناية فائقة وكأنما هي طفل تخاف عليه، عليها علب من صفيح مزركشة بألوان ورسومات غاية في الدقة، علبة الشاي، وعلبة السكر، وربطة كبيرة من النعناع، وحزمة صغيرة من نبات «الشهية»، ومجمر تطفق جمراته الحمراء الناطقة، وصحن من البلح.

تجلس على الأرض في الوسط تماما، غير آبهة، وكأنها متأكدة أننا سنخرج من غرفنا المطفأة الخرساء للتو.. وكالعادة تبدأ في تحضير الشاي على طريقته الخاصة، تضع كمشة من الشاي الأخضر في البرّاد (الإبريق) القابع في الوسط رافعا أنفه بشموخ، تشلله بقليل من الماء المغلي، تتركه قليلا ثم تشلله مرات أخرى، مطوحة ذراعها كله تلوح بالبرّاد (الأبريق) في الهواء، حتى تكاد تسمع حشجة حبيبات الشاي بداخله، وتعيد الماء ليغلي فوق المجمر.. للماء المغلي الفوار سحر لدى «الحاجة عذرا»، أشعر أن بعينيهما لذة قصوى وفرحا عارما. لا تفتأ تنظر إلى الماء المغلي وهو يثن فوق النار.. تضع قطع السكر الكثير ثم تنتظر قليلا قبل أن تقلبه في كأس كبيرة عدة مرات، لتعيده إلى البرّاد وتملاه أخيرا حتى التمام بالماء المغلي. تفكك ربطة النعناع المنظف ذي الأوراق الحرشاء بتوادة وحب واعتناء، وكلما حركته فاضت منه رائحته المهدئة، ثم تضعها جانبا وكأنها تريد أن تنعش رائحتها المكان قبل أن تدسها أخيرا في برّاد الشاي ذي اللون الفضي، وتضيف في الأخير نبتة «الشهية» ذات الرائحة النفاذة المنعشة. ترمي بين الحين والآخر نظرة إلينا ونحن جالسات حولها على الأرائك البنية في ثياب نومنا، بعيون متعبة ووجوه شاحبة واجمة منكسرة، تبتسم وهي تقلب السواك بين أسنانها الناصعة.. أفكر أحيانا أن الحاجة عذرا من خلال ابتسامتها المبهمة تلك، تقرأ ما بدواخلنا، وتعرف ما قمنا به خلال

النهار دون حتى أن نخبرها بشيء من ذلك.

منذ أن أقمت في بيت الحاجة عذرا، وأنا لا أزداد إلا رهبة من هذه المرأة المدهشة الضخمة، ذات الوجه ذي الجمال النادر بملامحه المنسجمة في تناسق غريب، الآتية من الجنوب البعيد الحار، في صوته حشرجة وكأن بقايا الرمل لا يبرح حنجرتها القوية، يتململ مع كل جملة تنطقها.

لا أدري لماذا آخذ كل ما تقوله على مأخذ الجد، على الرغم أنها لا تتكلم إلا وهي هازئة ساخرة، فلا تعرف هل أن ما ترويه قد حدث فعلا، أم أنها تطعمه بخيالها الخصب الواسع وسع الصحراء التي جاءت منها. يبدو لي أحيانا أن الحاجة عذرا عبارة عن خيام متراصة من أسرار ملونة متينة الأوتاد.

في الحقيقة «الحاجة عذرا» لا يأسرها شرب الشاي كثيرا، مع العلم أنها لا تستغني عن سحره أبدا، بقدر ما تعشق طقوس إعدادة، وتوزيع كؤوسه، والتمتع برؤية راشفيه وببهجة المتمتعين بلذته، ولذة الحكاية التي ترافقه مثل حلوى محشوة بالتمر الناضج.

تأخذ الكأس الصغير المذهبة أطرافه بعد أن توزع علينا مثله، لا تملأ الحاجة عذرا الكؤوس إلا للنصف أو بالكاد، إلا أن الكؤوس الشفافة الهشة الرقيقة تلك، تتدافع رغبة فضية على رؤوسها حتى تكاد تفيض.

تضحك الحاجة عذرا وهي تتأمل الكأس، ثم وكأنها فجأة تغيب بعيدا وتنطق بكامل لا وعيها:

- وأنا صغيرة، كان جدي سيدي محمد بن امبارك يرفع «البراد» عاليا جدا، ثم يهوي بسرعة بالسائل على الكأس، كي تشتد الرغبة فيه وتزداد وتناسل.. وكان يبالغ في شدة حركته تلك حين يملأ كأسه من

دون الحاضرين، ليمتلئ بالرغوة الفضية فيقول لي بزهو:

- آه يا عذرا.. ستصبحين ذات مال كثير حين تكبرين.. انظري الدراهم الكثيرة... يقول ذلك وهو يشير إلى فقاعات الرغوة الفضية المتلاطمة وهي تفيض على شفاه الكأس وقد امتلأ حتى التمام.. لم تكذب تنبؤات جدي سيدي محمد بن امبارك.. الحمد لله الآن لدي أملاك ومال كثير يكفيني وأكثر.

ثم تنتهد حتى نكاد نلمح النار تندلع في صدرها، ثم لا تلبث ترمش عينيها وتبتسم وكأنها تعتذر.

يظل الكأس الصغير بيدها، تتأمل به بحنان، وتشرب بين الكلام والكلام جرعات صغيرة، هي لا تريد شرب الشاي لوحدها.

هو احتفال بالحياة كلما جاءت الحاجة عذرا لتحضر لجلسة الشاي، تجعلنا روائح العطور نسافر بعيدا كلما انزلت ككل جلسة شاي في الحديث عن المراتع البعيدة العزيزة لطفولتها وشبابها، ولعل ذلك يذكرها بطقوس إعدادة وتناوله، وخاصة انتظاره.. انتظار جماعي لاحتفال بمتعة جماعية. الحق يقال إنه جو تصنعه الحاجة عذرا بمتهى الدقة والبراعة، تستحضر جغرافيتها الصحراوية التي نحن إليها تستقدمها من الذاكرة، وتعيشها بجزئياتها الصغيرة من أصوات ووجوه وألوان.. إنها بيننا، تأسرنا بأحاديثها، وتعمل أن يظل انتباهنا مستيقظا لسماعها، لكنها بعيدة جدا ونحن مجرد كمبارس.

المستأجرون لشقتها شركاء لها في إيقاظ الذاكرة، وهمز المخيال المليء بعوالم أخرى تختلف في كل شيء عن هذه المدينة الباردة.

إنها لا تشركهم جنونها الدفين بالشاي أو «التاي» كما تنطقه وطقوس جلساته الطويلة فحسب، بل تخلق طقسا قطعة من العالم

الصحراوي الذي تحن إليه بعد أن افتقدته منذ زمن وبدورنا تزيدنا جلسات الشاي دهشة بعد أخرى.. إنه إدمان الشاي وما له.

- قعدة التاي مقدسة يا بنات!

نجلس في البدء حولها صامتات، بأثوابنا المسائية تتهدل حول أجسامنا النحيلّة المتعبة، والنمل يتكاثر في أسفل الأقدام من كثرة السعي في هذه المدينة الغولة التي نشارك جميعنا في غربتنا فيها، كل واحدة في داخل رأسها دخان اليوم الطويل في البحث عن المبتغى، يتصاعد في التواءات قليلا قليلا مثل أفعى راقصة.

لا يبدو أن «الحاجة عذرا» تنتظر منا شيئا، لست أدري إن كانت تشفق على حالنا، أو تتسلى برؤيتنا عابسات يائسات، وقد بدت أحسن حال منا بحضورها الكاسح وفتنتها، فلا قدرة على منافستها، على الرغم من شبابنا وقدر الجمال لكل واحدة منا.

سعادتها القصوى، حين تبدأ بصب الشاي في الكؤوس الصغيرة مذهبة الأعناق، وقد رفعت الإبريق الفضي شامخ الأنف عاليا جدا، حتى تخاله معلقا في السقف، فيسيل الشاي الأصفر المتلألئ المتراقص في الهواء، وكأنه شعاع أو شهاب يهوي نحو حتفه. لا تخطئ الحاجة عذرا مرماه أبدا، ولا تتسرب إليه نقطة منه خارج الكأس الصغير.

لتلك الحركة بهجة تدخلها إلى نفسي، فيفتنت مزاجي العكر فجأة وأبتسم. ومثلي تشق الابتسامة وجهي نسيمة وباية العابستين إلى نصفين.

تمتد جلسة الشاي طويلا، وعلى دفعات ومراحل، بمنهجية فائقة الدقة، تملؤها الحاجة عذرا بأخبار نساء ورجال أهل الصحراء، عشقهم وزواجهم، وطلاقهم، وولاداتهم، ورقصاتهم، واحتفالاتهم بمواسم

النجوم، ورحلاتهم، وعاداتهم، وسهراتهم تحت سماء لا مثيل لصفائها
ولشاعتها وقربها، ووصف ليومياتهم في دقائقها، حديثهم الأساسي
عن الماء وتوزيعه بالقسط عن طريق نظام «الفوغرات»، الطريقة
المتفردة والفريدة في العالم لتوزيع هذه المادة العزيزة بالعدل على
ناس الصحراء، وتحدثنا عن الفرح السائد في البيوت..

لست أدري لماذا لا تسترسل الحاجة عذرا إلا في الحكايات
السعيدة، كل شيء يتحدث عنه يملؤه عبق الفرح، كل ما استرسلت
في حديثها بصوتها الجهوري الهادئ تميزه بحة وكأن الحروف تخرج
من أنفها، إلا وتلاشت غيوم الكآبة عن قلبي، خاصة حكايات الحب
والخيانات، وحيل النساء، وأخبارهن، وأسرارهن الغريبة، التي لا
يعرف منها الرجال شعرة واحدة، مهما أوتوا من دهاء أو ذكاء. كثيرا
ما تختم جلساتنا المؤنسة، فتعزف على آلة الإمزاد ذات الوتر الوحيد،
يخرج آهات متواصلة، تضع الآلة في حجرها ثم تمرر القوس الصغير،
وبصوتها المتهلج نصف النائم، نصف الغائب، تغني..

في البدء، لم أستسغ هذا النوع من الموسيقى والغناء، أنا التي
تربت أذني على أغاني الصخب والصياح، ولكن مع ترددها وسماعها،
أضحيت أشعر بحركة لذيدة في صدري، ورجفة حين يثن هذا الوتر
الوحيد في حجرها.. مزيج من الرهبة والنشوة والاعجاب، ثم وقعت
في غرام هذه الآلة الغريبة.

ذهبت ذات يوم عند بائع الأدوات الموسيقية في أكبر شارع
في المدينة، محل ضخم وفاخر يحتوي على عدد كبير من الآلات
الموسيقية. الجميلة، فقلت له بثقة:

- أريد آلة الإمزاد من فضلك..!

لم يتردد أن يتفرس في وجهي عن قرب ثم ضحك مني هازئا

هاذا رأسه الضخمة يمنة ويسرة:

- واش هذا.. عمري ما سمعت به!!؟؟

لكنني على الرغم من وجهي احمر من المفاجأة وربما الغضب.. كررت أمام وجهه:

- الإمزاد.. الإمزاد.. الإمزاد نتاع الطوارق!

ثم خرجت وأنا ألوح بذراعي من قلة الحيلة.

فطنت الحاجة عذرا إلى أن أحاديثها التي تشدنا إليها أكثر، هي تلك التي تتناول سير الرجال وعلاقتهم بالنساء، وما يدور في كواليس النساء خاصة من تدابير عفارية للحيل.. فتسترسل سخية فيها، مفصلة، مؤكدة، محللة، معلقة.. لم تكن الحاجة عذرا لطيفة مع الرجال على الرغم من إعجابها الكبير بهم، واهتمامها بأخبارهم الصغيرة والكبيرة.. وحين تبدأ بوصف أحد منهم فإنها تفتت جسده بالقول والمعنى إلى تفاصيل لا تدركها غير عارفة بأمورهم الدقيقة، وكانت تسميهم «الذُكُورًا».

- أنا اللي نعرفهم الذُكُورًا هاذوك.. أنا اللي نفهمهم وهي

طائرة..!

في آخر كل سهرة، تتعالى ضحكاتنا حتى لتكاد تشق سقف الغرفة.. ليس هذا فحسب، بل تكاد نشعر وكأن يومنا الهالك لم يذهب سدى، وقد اجترحنا منه ما يكفي من الانتصار على الرتبة والفشل، وأشياء أخرى، في هدف كل واحدة منا.

في بداية الأمر، لم نكن نستسيغ الدخول المفاجئ للحاجة عذرا إلى الشقة، كنا نشعر أنه يكفي أننا ثلاثتنا في البيت، فبالكاد نتحمل بعضنا البعض، فلا يجب أن تضيف حضورها اليومي الثقيل، لكن

والحق يقال، وبعد فترة صرنا نحبز مجيئها، وعلى شوق ننتظره لكسر رتابة المساء بل النهار كله، ثم إنها لا تتدخل أبدا في حياتنا الخاصة، ولم تسأل إحدانا مرة عما تفعله في الخارج طوال النهار.. يبدو أن الحاجة عذرا لا يهتمها الإطلاع على أخبارنا، بل يهتمها أن نستمع إليها لا غير، إنها تحتاج إلى من ينصت إلى حكاية حياتها الغريبة الغنية بالأحداث، التي لا تكرر سردها، ولم يحدث أن سمعنا قولا لها مرتين، حتى إننا، أحيانا، نشك في حقيقة بعض التفاصيل العجيبة في قصصها، إلا أن طريقتها المتقنة في الحكمة، والتدقيق، والتأنيث بذكر الأسماء والأماكن والتفاصيل والأحداث والتواريخ، تجعلنا نتنفس الصعداء، ونحن نكاد أن نصير متأكدات على أنها لا تضحك على ذقوننا.. بالكاد..

يا إلهي.. ما هذا الجيش كله الذي عرفته «الحاجة عذرا» من الناس وخاصة من الرجال، وهل كل تلك القصص الغريبة في علاقاتها مع «الذُكُورَا» كما تسميهم، ولا تدخر جهدا في التفنن حين قصها علينا حقيقة..؟ وهل هي أيضا مثل أحوالنا قصدت هذه المدينة بحثا أو هروبا أو انتقاما من أحدهم..؟

على كل حال للتفاصيل في حكاياتها عن الذُكُورَا أشياء تولد فينا الرغبة في التصديق أنها فعلا حقيقة.

«الحاجة عذرا» ابنة الطوارق، جاءت إلى هذه المدينة الساحلية الرطبة ذات صيف، آتية من أقصى الجنوب رفقة خليجي وسيم، حضر وبالصدفة حفلة طلاقها، ونتيجة لعلاقاته القوية بذوي النفوذ في البلد، أسكنها حيا راقيا لا يصل إليه العاديون.

- والله سأخذكن يابنات ذات يوم لزيارة سكني بنادي الصنوبر!..

أخبرتنا أنه بعد أن تم طلاقها من آخر أزواجها، بسبب عدم إنجابها له، شعرت أنه بدأ يتلكأ وييدي الامتعاض من محنته، فلم تتردد في الانفصال عنه، وتبعا لعادة الطوارق في الاحتفال بال مطلقة، لم تخرج عن العادة العتيقة، فأقامت حفلة جميلة صاخبة، حضرها كبار القوم وصغارهم، ولم تستثن في دعوتها أحدا. وفي الحفلة التاريخية تلك، صادف وجود رجال من بلد خليجي في المنطقة، يقيمون عادة لفترة محددة بغرض ممارسة هواياتهم التي هي صيد الغزلان، والظباء، وحيوانات الصحراء الشاسعة الغنية بكل شيء من ثروات باطنية وظاهرية حية يزخر بها البلد..

وكانها تلعن وجودهم هناك لا تتردد الحاجة عذرا في تبيان اشمئزازها، فتفضي بأنهم يقومون باستغلال كل شيء دون حرج، وكأنهم في بلدهم، أو أنهم اشتروه بأموالهم الطائلة. ثم أخبرتنا هامة وكأنها تفضي بشيء خطير:

- إنهم أصدقاء «الحاكم الأوحّد» وخيرُهم سابق عليه، يقال إنهم استقبلوه في ديارهم قبل ركوبه كرسي الرئاسة، واليوم يريد أن يجازيهم ويرد جميلهم بجميل أكبر، فجعل تحت تصرفهم الصحراء والهضاب العليا، ملعبا لهم يحطون بطائراتهم الخاصة، وسياراتهم الرباعية الدفع، الضخمة الفخمة، وأسلحتهم للصيد وصقورهم على أكتافهم.

- لماذا لا يجازيهم من جيبه.. والله العظيم زمر..

تصف الحاجة عذرا وهي القديرة على الوصف حفلتها، كانت لا تنسى، ولا مثل لها بين حفلات الطلاق في تاريخ النساء الطاريقات. فقد نصبت خيمة كبيرة من وبر الجمال الحر، بحضور جميع سكان المنطقة، ولم تتوان عن دعوة هؤلاء الخليجيين، الذين كانوا يجوبون المكان بحرية، بعدما جذبهم صوت الموسيقى والرقص والزغاريد،

جاؤوا لغرض الاكتشاف والتطفل، خاصة وأنهم استغربوا، وتضاحكوا كيف لمطلقة أن تقيم حفلة فرح بطلاقها.

- شلون يصير هاذ. هاهاها..؟

بلغت سمعها تلك الجملة.. تقول الحاجة عذرا وهي رافعة حاجبيها، تدرج عينها يمنا ويسرة وعلى وجهها ابتسامة ساهمة، إن فكرة جهنمية جابت ذهنها فجأة، فأقسمت اليمين أن تصيدهم، فكما جاؤوا ليصيدوا، فذنبهم على جنبهم، بدورها سترمي بشباكها الخاصة وليذهب إلى الجحيم مضيفهم، وهم ما هم عليه من الثراء والبذخ الذي ما انفكوا يظهرونه ويتمظهرون به، وكأن بهم ستستسلم لهم الرمال وغزالات الصحراء بكل أنواعها.

- تعالوا سأورّي لكم!

نعم.. حفلة طلاقي لم تشهد مثلها سماء الصحراء من قبل.. كان الغناء يصل عنان السماء المفتوحة على الغيب والغياب، والرقص في أوج جنونه، ورائحة البخور والحناء تتسرب إلى أبعد خلية في أجسام الحاضرين..

حَطَّيْتُ عيني على واحد منهم.. كان أوسمهم وأجملهم وجهها وجسدا، عيني العارفة عرّته في طرفة رمش.. علمت في ما بعد أن أباه تزوج أمه من بلاد تدعى السويد، بعد أن التقى بها في شاطئ مخصص للعراة هناك، فأسقطته من علياء شمسهِ إلى ثلجها.. ثم تزوجها وأخذها إلى بلده.

- الحق يقال كان أسرا، تتداخل سمرة النحاسية بما يشبه حليب النوق الرائب، وشفتاه تلمعان من بعيد مثل تمرّة براقّة وسط عرجون معلق في أعالي نخلة.

وتسترسل الحاجة عذرا في ضحكة جهورية، وهي تلوح بذراعيها في الهواء، قبل أن تصفق يدا في يد، بينما جسمها الضخم يموج في مكانه.

بحساسيتها الطارقية العليمة، اختارت «الحاجة عذرا» الوقت المناسب واللحظة القاتلة بعد أن سخن الحفل.

في ذروة لحظاته النارية، ترجلت من جلستها الملوكية، فارتفعت الزغاريد.. وكيف لا.. أليست هي عروس الحفل؟!،

توسطت الجميلة عذرا المحتفى بها الحضور، فوسعوا لها ساحة الرقص، باعدوا بينهم حتى فرغت الحلبة لها وحدها، وانطلقت في رقصة يمامة برية زرقاء، يشع ثوبها الأزرق اللامع كأن المرايا تسكنه، أسقطت منديلها الأسود الفاحم من على شعرها المحنى، اشتدت الموسيقى سرعتها، فازداد توحشها الجميل.. كانت ترقص بكل شيء يستطيع أن يتحرك في جسمها، من شعرها المحنى، إلى حاجبيها إلى أخمص قدميها.. تدوس الأرض بالكاد.. حتى التراب كأنه استفاق تحت خطواتها، كان يشمها ويتعرف على أجزائه الواقفة منه فيها، يتناثر ويمد ذراته شفاها. راغبة في لثمها، متسربا من بين الحُصُر والزرابي الحمراء المبسوطة.

كانت ترفرف بأطراف أصابعها في رقصتها الطارقية المدهشة، وكأنها تسبح بحمد خالقها.. ثم اقتربت من صيدها.. اقتربت منه كثيرا.. لم تلمسه، بل أرسلت بحرارة جسمها المتعرق حوله، كانت روائح الحلي من الأحجار العطرية، والعطور القوية الملتصقة بالجسد، تتحلل إلى ذرات تحت حرارة الطقس وطقس الرقص.. تملأ عينيه، وفمه، وخياشيمه، ورثيه، وبطنه، وكيانه، وتبلغ حتى أعرق جزء فيه.. لم تلامسه.. اقتربت منه أكثر، ورفعت ذراعيها قريبا جدا منه دون أن

تنظر إليه، ثم أرسلت من بين أهدابها برقاً حاداً قاصماً.
 - ضيقتُ أهداب العين مني هكذا.. مثل قوس على السهم،
 ورميته فأصبته!

دارت حوله مثل زوبعة وكأنها تطوقه بنارها.. كاد أن يغمى عليه.. لم تلامسه أبداً.. اقتربت، حتى خيل له أنهما يتداخلا.. كأنها تسمع تنهده وأنيته.. لم يعد الحاضرون الكثر حاضرين.. غياب هم جميعهم.. لم يعد يرى أحداً غير هذه الطارقة ترقص بحفلة طلاقها.. بدا الغريب الثري القادم من شبه الجزيرة أو الخليج متشنجاً، كل ما فيه أضحى مشدوداً على آخره.. مد يده المرتجفة دون إرادة منه.. إلا أنها ابتعدت راقصة، ثم جلست بهدوء في مكانها العالي وسط الزغاريد، وقد تأكدت أن المهمة قد انتهت، وأنها أخذت لبه وضعته تحت الوسادة.. هكذا! ثم ألقت إليه نظرة تؤكد انتصارها عليه. كان الوسيم يقف مشدوها مهزوماً، وحيداً، مفرداً، ذراعاه منسدلتان، وحبّات عرق تتمرغ على السمرة النحاسية لجبينه وصدغيه.. شفتاه اللتان تشبهان ثمرة يانعة على شفة السقوط، اشتد بريقهما، وكان على وجهه تعبير كمن أضاع للتو شيئاً ثميناً كان ملكه قبل لحظات.. مخبئاً بين جوانحه كان.

وفي الغد.. وكما كانت تنتظر، بعث الوسيم إليها بمرسول، وبهدايا ثمينة، لكن إجابتها كانت قاطعة.

باب المعسول

كلما مسّ الليل فاكهة صارت عنبا (ربيعه)

مَطُولٌ دالليل كي طوال.. وانا فالبيت غير وحدي،
غزلي مبني على خبال.. ماصبت سلاك كي نسدي.

ضعيف أنا أمام هذه الأغنية لأحمد وهبي.. وكلما هجمت على
ذاكرتي على حين غرة، تسكنها، وتظل بها أياما ترن، وتتلوى، ترفعي
وتطهرني أنا العاشق المهموم الضائع أنا الوحيد المنتظر..

وحدي في هذا البيت أتقلب على الجمر، أبني سيناريوهات
صغيرة مقتضبة حول مجيء عذرا.. أحيانا يبلغ بي الجنون والتلف
فأتخيلها تبسم لي تقترب تلفني حرارتها ثم تحضنني فيغيب رأسي
في رداؤها الطارقي الواسع السخي، ثم لا أدري كيف تنتهي القصة
التي لا أريد لها سوى نهاية مفتوحة على أمل امتلاكها. فأستيقظ على
وحدتي وعلى انتظاري عذرا الطارقة، مثلما كان ينتظر الشاعر المقيم
مصطفى بن ابراهيم محبوبته زهرة التركية، أليس هذا عزاء جميل
لعاشق مثلي؟؟

مطول دالليل كي طوال يا عذرا فيك خاب سعدي
أنا عاشق مسهد، ذو صباية، قليل الحظ، متعثره. إلا أنني أدرك

جدا تشخيص دائي، ولي معرفة بأنجع دواء لشفائي.. إنه على يديها،
يديها المحناتين وحدهما..

نعم أتأكد الآن وكأنني أنظر في عمق مرآة نفسي.. لامهرب ولا
مفر.. هي مصدر تعبي، فدون أدنى شك ستكون هي ينبوع راحتي
التي فقدتها منذ أن رأيته. منذ أن سكن أحشائي هذا الشعور الغريب
المزيج من الضياع والحزن والبهجة والانتصار والانكسار.. إحساسك
وكانك كرة خيط ملونة يلهو بها قط صغير.. أو كأنك تحرك حبل
أعصابك لتقفز عليه معشوقتك الالهية، متوجعا متلذذا، ترسم على
وجهك ابتسامة يانعة، فلا تعلم هل عليك أن ترفع أعلام انتصارك،
أم تواسي جيشك الجرار المنكسر.. فسحقا للحب.. كم هو معقد وكم
هو متعب!

مطول دالليل كي طوال ماصبت سلاك كي نسدي
ولكن لماذا لا تلتفت إلي.. ألي هذا الحد أنا مخلوق صغير
مجهرى بالنسبة لها.. ألا تراني؟

كل النساء اللواتي مررت بهن، وعرفتهن، صرحن أو لمحن أنني
رجل جذاب واعترفن بوسامتي ودمائتي ووصل بإحداهن أن باحت
واعترفت بـ «شوفة» عيني التي تفتت الحجر... ووو.

لكن هذه الـ «عذرا» لا تراني.. يبدو أنها لا تحسب لي حسابا،
تمر دون حتى أن تقع عينها علي، وكأنني أضع طاقة إخفاء.. ألي
هذا الحد تتمادى الطارقيات في شموخهن.. على أية حال ومهما كان
فإن شيئا عميقا بداخلي يجعلني شبه متأكد أنها تدري ما بي، وتدرك
ناري وانصهاري وجنوني وضعفي الذي يعثرُ خطوي، ويلعثم لساني
كلما قدمت لتفقد فيللتها.. ليس من به مثلها يقظة يفوته هذا الزلزال
الذي يحدث كلما مرت.

لم ألتق في حياتي امرأة مثل الحاجة عذرا هذه.. ليتني التقيت بها قبل سنوات خلت، إلا أن الرياح عادة تجري بما لا تشتهي السفن ولا القوارب، وسفني دائماً غارقة والحمد لله.

ليتها توسطت طريقي قبلاً، فلربما كانت غيرت قدرتي وحياتي الفارغة الجرداء إلا من الشوك -أرضي، والشوك- فضائي. حياتي التي توزعتها مقاعد الجامعات والمكتبات، ثم المقاهي الرخيصة وغيرها من الزوايا المشبوهة وغير المشبوهة..

ثم جدران الشوارع.. الحيطان.. الحيطان.. أستاذ إليها أرى الحياة تمر أمامي هائجة مائجة، تعج بسيارات الأغنياء الجدد الفخمة، يخرجون مرافقهم من النافذة ويضعون سماعات التلفون في آذانهم ويفتحون سقوف سياراتهم الباذخة وينظرون من عل إلى بقية المارة والمركبات البسيطة، وكأن وجودهم زائد يعيق الحركة. بصري، أنهره فلا يسمعني، ودون إذن مني أراه ينزلق مثل كلب الياف خلف النساء الجميلات، يمررن علي فأسرق بعض التفاصيل المبهرة أستاذنس بها وأخبئها لليل البهيم الموحش الذي ينتظرنني.. ليلى الحزين الذي يبحث عادة في جيبه عن قطعة نهار ليمسح بها دموعه.. هي تفاصيل -أملأ فراغها وتملاً فراغي.

- أنا مفتون بها ياديين الزعاف.. ولا تشبه فتنتي بها ما كان يحدث لي من قبل.

حين أعود بذاكرتي يهولني عدد النساء اللواتي أثن قدرتي.. بعد أن ذقت أول انكسار مهول، تعلمت من خلاله أن لا شيء سهل، وقطعت من خلاله حبل سرتي مع الرومانسية ومآربها.

ليس ذنبي.. كنت أتمنى أن أتزوج «لطيفة» حبي الأول الذي فتح علي جنون عشقها نيرانه، بينما أنا على أبواب تخرجي من الجامعة..

نعم كنت رومانسيا غريرا.. لفظتني أبواب الجامعة فواجهتني أبواب الحياة المغلقة، فلا عمل ولا سكن ولا قدرة على زواج ولا أمل.. كانت لطيفة بيضاء ممثلة شهية وخجولة، وكثيرة التشكي، وتحلم بحياة مترفة. كانت متشعبة الخيال بصور شخصيات المسلسلات العربية وعلى الرغم من أنها كانت تشبهني لمطربها المفضل راغب علامة إلا أن خيبتني كانت كبيرة حين خطبها رجل ثري أكبر منها بعشريتين، فلم تتردد في ترك الجامعة والقبول به خوفا من العنوسة التي تسحب ظلها بمرارة على بيتهم، بحيث تجاوزت أختاها الأكبر منها سن الزواج..

كان حظي أغبرا، لم تتحمل لطيفة حتى عناء اللقاء بي ولو للمرة الأخيرة عند صديقتها كما كانت تفعل لتخبرني بالامر.. فجأة لم أعد أرها، بدأت تعتذر عن اللقاء ثم تتلأأ ثم لم تعد ترد، حتى علمت من صديقتها الخبيريقيين، وذات يوم عمت الزغاريد والطبول في العمارة التي تسكن بها، كانوا يزفون لطيفة إلى الثري المحظوظ، لم أتحمل المهزلة آنئذ، ذهبت لأزف نفسي وحزني تلك الليلة إلى «حانة الوفاء»، وسكرت لأول مرة، وصرخت في الحانة كثيرا حتى ابتلت أثوابي. ولعنت النساء جميعا، وجميع من يثق فيهن، وانهمرت السباب من فمي عليهن جميعا. نعتهن بالخيانة وقلة العقل والغدر، وأقذر الصفات. كانت حانة الوفاء غاصة بالرواد يوم عطلة آخر الأسبوع، إلا أن أحدا لم يلتفت إلي، تركوني أهذي وأرغي وأزبد. كنت أمر على جميع الطاولات متمايلا وأضرب عليها بقبضتي حتى تتراقص الكؤوس وتتساقط الزجاجات الفارغة. حز في نفسي أن يكونوا غافلين عني وعن همي. من حين لآخر يلقي رواد الحانة نظرة إلي، ثم لا يلبثون أن ينسوني في هياجي، يلتفتون إلي من لحظة إلى أخرى

وكانهم يطمثون أنني ما زلت على قيد الحياة وعلى قيد الصراخ، ثم يعودون إلى انشغالهم بلعبة الورق، وآخرون في حوارات يغطي عليها صوت أغاني الشيشة الرميبي الذي لا ينقطع.

حين كدت أن أمزق حبالتي الصوتية، اقترب مني رجل مسن، يضع قبعة مكسيكية، وقد تسللت خصلات هزيلة من شعره الأبيض الطويلة تطل من تحتها تنسدل على كتفيه وكأنه من بقايا الهنود الحمر الذين لم تفلح فيه آلة التطهير الأمريكية فنفذ منها بأعجوبة..

كان يجلس وحده خلف طاولة صغيرة منعزلة، لعله صاحب الحانة، أو أقدم رائد لها، كأنما رق لحالي، كنت أراه يتهادى، أو ربما أنا الذي كنت أشارف على السقوط.

ربت على كتفي ثم أجلسني بهدوء في مكاني وأنا لا أزال أرغي. جلس أمامي، كان يبدو لي اثنين أو ثلاثة أو جماعة ثم لا يلبث أن يصير واحدا مفردا، ثم أراه جماعة وهكذا، مثل مروحة تفتح وتغلق.. لا أعلم كيف انتبهت فجأة في لحظة صفاء عابرة لم تدم طويلا، ولا أعرف كيف تغلغلت جملته في ذاكرة رأسي المدوخة:

- اقعد اقعد يا صاحبي.. دَرَكْ تكبر وتساها.. وَجَدُ روحك للي

جاي.. راه صعيب وواعر.

لست أدري كيف أفرغت ما في عيني من دموع ومافي صدري من نشيج كما أفرغت ما في معدتي. طلب لي فنجان قهوة ثقيلة، ثم جلس يقص حكايات غدر النساء له، وخياناتهن وغرائب وقعت له. لست أذكر منها شيئا سوى يديه تديران القبعة على الطاولة، وعينه اللتين كانتا تفيضان من حين لآخر.

اللعة على بنات حواء ما أقساهن وأظلمهن..

توالت النساء في حياتي وكلني حذر وتوجس.. لم أربط علاقة أطول من زمن سريرين على الأكثر.. ولم أثق في وعد، ولم آخذ جدهن ولا هزلهن محمل الجد.. إلى أن وقعت هذه الواقعة.

الآن يا الرب العاليي تغير الأمر.. كنت مريح والله.. أستغفرك ياربي ولكن لماذا أرسلتها في سييلي؟؟ أو على الأقل خليها تعرف ما يحدث لي.

نعم نعم متأكد أنا أنها تعرف.. نظرتها تلك من تحت رموشها الطويلة مثل نمره متوثبة خلف قضبان. تدفع الأرض بقوة قوائمها الأربع.. بارزة المخالب.. جاهزة للانقضاض.. لا.. أنا متأكد أنها لا تخطيء.. نعم هي الطارقة بدماثها الحارة قادرة أن تلتقط حركة مثل البرق، لحرباء تقفز فجأة لتختبئ في الرمل.. الشمس القريبة التي تربت تحتها، أضاءت بما يكفي نباهتها لتدرك مالا تدركه الأخريات..

من البله أن لا تدرك جنوني بها.. ربما هي تحاول تجاهلي لسبب ما أو لغاية في نفسها.. ثم كم أتوق لمعرفة كيف ستبدو لها فكرة اهتمامي بها.. كيف ستستقبلها.. هل ستفرح، أم سيستولي عليها الخوف والارتباك، أم يا ترى سوف لن يتحرك شيء فيها وتعتبر الأمر وكأنه لم يحدث.

كم سيكون ذلك مؤلما لي، أنا الذي أقضي من الليالي الصعبة الموحشة التي ليست كليالي الناس.. موحشة وسوداء ورطبة.. وحيدا إلا من قرد الرغبة، يستيقظ بي هذا اللثيم، لا يظهر لي إلا ليلا. وحش برأسين أطلقت عليه اسم كوكو، لا هم له سوى أن يسخر مني، أصبحت أحسب لوجوده الحساب العسير بحيث أراقب كل حركاتي وسكناتي، فكلما اقتربت يدي من حجري أحولها بسرعة نحو صدغي وأغير بذلك المكان الذي بي رغبة لحكه.

أحرك ذراعي في الهواء بعصية لأطرده، إلا أنه يتبعني ويظل
يصيح باسمي:

- مسعود يا مسعود.

يضايقني ويطاردني، ولكنني لا أسكت له، أرد عليه أحيانا وأعيـره
وأذكره أنه ليس أحسن حـظا مني بشكله الغريب، وكأنه نتاج تزاوج
قردة ببيغاء، إنه يتعـبني بتهكمه اللثيم، يرقص حولي ببلادة ويوقف شعر
رأسي إلى الأعلى وحيثما استدرت يخرج لسانه الأسود الغريب في
وجهي هازئا مني وهو يكرر بصوت مقـعر زاعقا:

- عذرة العذارى ومسعود يا خسارة..

يقولها فتردها أصدااء أركان الفيللا، وحين يتأكد أن أعصابي
قد خارت وأنه أغاظني بشدة حين أقوم غاضبا مهددا لأتمكن من أي
شيء أهش به عليه، يهرب مرددا:

- عذرة العذارى ومسعود يا خسارة..

ثم يختفي مختبئا لست أدري بأية زاوية من زوايا الفيللا الموحشة
الفارغة..

الحقيقة أنني أستأنس بوجود «كوكو»، أنا الذي خلقتـه، وربيتـه
وأصنعت له السمع كي يكسر جليـد الوحدة، وطوق الغربة الحديدي.
أشعر بالمكان فارغا موحشا. نعم سيضحى موحشا لولا كوكو قرد
الرغبة.. إنه بألعاـبه الصبائية تلك ومحاولته إثارة غضبي وإزعاجي
ودورانه حولي زاعقا كالعادة بصوته البشع، يخفف عني الشعور
بالوحدة والعزلة القاتلة واللاجدوى.

- عذرة العذارى ومسعود يا خسارة..

- عندك الحق يا كوكو..

صعب أن تشعر بأنك لا فائدة منك ترجى.. قد تسوقك الحالة

نحو جبل معلق في سقف غرفة ومقعد هش القوائم يقبع تحته.. قد
تنظر إليهما من تحت إلى فوق وتقول إن الفكرة ليست سيئة تماماً.
- آآآآه ه ه.. يكثر خيرك يا كوكو>

من رمانني إلى العالم الموازي بهذه الفيلا التي تبدو لي أكثر
وحشة كل يوم، على الرغم مما بها من أثاث فاخر، علمت أنه من
لدن الدولة الكريمة، ملأت كل البنايات الفاخرة هنا بهذا الأثاث، مثل
ما فعلت على ما يبدو مع جميع الفيلات الجاهزة الأنيقة المترامية
على أطراف شجر الصنوبر وعلى الشاطئ المحروس، لا يدخله من
هب ودب من الشعب. قطعة من الخيال، فيه ما لا عين رأت ولا
أذن سمعت ولا لسان ذاق. جنة نادي الصنوبر بعيدة عن ضجيج
العاصمة وهوائها الملوث، تسكن بها وتأويها الناس «اللي تستاهل»،
الشخصيات السياسية والهامة والمحظوظة والمقربة وال...، كي تستريح
وتسكن إلى الهدوء ولذة البذخ، وتنام وتحلم في منأى عن الدماء
والغاشي. وإلا كيف يمكنها أن تحكم وأن تنجز الأعمال التاريخية
والمشاريع الكبرى الخالدة. كيف لها أن تفكر في هدوء وسكينة كيف
تضمن مستقبل الأجيال والبلاد والعباد، وتكتب تاريخ المجد الذي
يليق بها بأحرف من نور ونار وزبرجد، من ذهب وفضة..
السياسة والحكم والتفكير أمور يحسبوننها سهلة وماهي سهلة.
فلا بد أن يكافأ عليها من يمارسها.

ثم إنها تتطلب الهدوء المطلق، كي ينطلق المخ الكبير، نعم المخ
الكبير الذي يستخدم كل خلاياه، وليس مثل هؤلاء العاديين الذين لا
يستخدمون سوى ملغرامات من أدمغتهم طول حياتهم ثم يردونها إلى
خالقها بعد موتهم معلبة كما استلموها منه، لم يمسسها فكر. إنهم لا

يفكرون سوى في الدقيق والزيت والسكر. شتان بينهم وبين الدماغ العملاق الذي يتدبر شؤون السيادة، ويتتج الأفكار الكبيرة، ويصنع المعجزات، ويقف بالمرصاد والتحدي لكل اعتداء داخلي، أو خطر خارجي.. يحسبون الأمر سهلاً وما هو بسهل. الحكم ليس لعباً إنه تعب، إنه تكليف وليس تشریفاً.. الحاكم مسكين متعب وقلق أطراف النهار وأثناء الليل، يحمل على اكتافه صخرة سيزيف، وصخرة سيزيف هذه ليست سوى الشعب وهمومه وتطلعاته المستقبلية الباهرة في الكرامة والمجد والرخاء والوحدة والعدالة والتنمية، والتربية والعلم والصحة والسياحة والدين والمعرفة. إلى آخره وإلى آخره..

ليس من حقهم بعد هذا كله أن يأخذوا حقهم من الراحة، تعبهم ليس من أجل أنفسهم، ليس من أجل مصلحتهم الخاصة، بل من أجل الشعب النائم في العسل.. إنه نكران الذات.. ويا له من نكران الذات. - اسكت يا مسعود.. يكفي يكفي.

كل هذا فهمناه يا كوكو، فنحن نستمع إليه على رأس كل ساعة في الإذاعات، ونشاهده كل نشرة أخبار على الشاشات الرسمية ولقد اقتنعنا.. نعم اقتنعنا وأمانا.

- صايي اقتنعنا إنهم يجهدون أنفسهم من أجل الصالح العام... ولكنني حرت جواباً على سؤال يورقني.. آه يا كوكو سؤال واحد يورقني!!

- والحاجة عذراً واش جابها لهننا وواش دخلها؟؟

- عذرة العذارى ومسعود يا خسارة..

قالها ساخراً ثم اختفى هارباً قبل أن ألحق به مهدداً متوعداً.

أنا رجل مؤدب، أعرف الأصول وأعرف ما يجب وما لا يجب،

وأعترف أنه لولا الحاجة عذرا التي وظفتني حارسا لفيلتها هذه، لما وجدت عملا آخر، ولمكثت في مدينتي أسند الحيطان.. أليس من حسن حظي أن أحرس فيللا الحاجة عذرا على أن أحرس الشارع بلا مقابل..

نعم رغبتى المجنونة أن أمتلكها أن أحبها لم تؤثر قيد أنملة في احترامي لها، إلى درجة أنني، حين جاءت في المرة الأخيرة رفقة ثلاث فتيات، ارتبكت لرؤيتها على الرغم من أنها أخبرتني مسبقا بموعد مجيئها، قصد أن أرتب كل شيء وأطمئن إلى أن الفيللا لا تتطلب مرور الخادمة للتنظيف مرة أخرى.

كانت عذرا تتقدمهن عند الوصول. واحدة من الفتيات الثلاث لم تحد بنظرها عني، وكأنها قد أدركت فتنتي واكتشفت ما بي واخترقت صندوق سري..

وما كادت تعبر الحاجة عذرا من الباب الكبير، حتى شعرتُ بتلاكم الكلمات على طرف لساني، ولمحت كوكو ينثني من الضحك وهو ينظر إليّ شامتا يومى وبلا صوت:
- عذرة العذارى ومسعود ياخسارة.

كلما مرت بي داخلة أو خارجة من باب فيللتها، أنحني لها وأبتسم بقلق، لا أترك كلاما طيبا إلا وسبقت نفسي به إليها.. أسمعها الكلام المتتقى باحترام، المنمق الذي أرتبه مسبقا في سري جملة جملة، ووقعا وقعا.

حالما تختفي الحاجة عذرا عن عيني، أعض على يدي ندما. وقد تنبّهت إلى أنني أسبقت جملة على أخرى، وأنني نسيت واحدة ربما كانت أهمها جميعا. لكنها تمر بسرعة دون التفاتة وكأنني فزاعة

جميلة من تبين.

مرات أخلو إلى نفسي وأنا مستلق على فراشي، وقد طردت
كوكو وأغلقت الباب، أكاد أرجع إلى رشدي وأوبخ نفسي بكلام
قاس حزين:

- أنت عساس يا مسعود ولازم تبقى عساس.

كيف لها أن تنظر أو تتبّه إليك، وتشعر بحالك، وتفكر فيك
وأنت الحارس المسكين لفيلتها بنادي الصنوبر، وما أدراك ما نادي
الصنوبر.

أجلس متحيا عند المدخل، أرقب ضيوفها بعين مليئة بالأسئلة
المحيرة والغيرة وشيء من الحسد، وهي التي تستقبل كبار القوم
وأشدهم بأسا وغنى وسلطة وجاها..

تمنيت ولو مرة وأنا ألمحهم من النوافذ مرتاحين على الأرائك
الجلدية البنية حول مائدة الزجاج المستديرة الغارقة قوائمها في صوف
البساط، أن أجلس إليهم أسمع حواراتهم وهم يلوحون بأيديهم في
الهواء، وسأحاول أن أضحك كما يضحكون وعلى ما يضحكون،
وأناقش في ما يناقشون. سيستفيدون مني حتما.. أنا أيضاً لدي ما
أقوله، ولي آراء قد يستفيدون منها في فهم الأمة وكشف المستور من
غمة الشعب المقهور. ألسنت رجلا متعلما ولدي شهادات عليا، ثم
إنني أستطيع أن أتحدث في الأدب والتاريخ كما يجب على متخصص
مثلي قضى عمره على مقاعد الدراسة حتى طابت مؤخرته وأصابه
الإمساك المزمن، ثم لم يرحم نفسه بل زادت ألماتها ألمات المقاعد المكتبات
وقاعات البحث سنوات أخرى بعد التخرج إلى أن سئم ومل.

لا ألبث أن أستغفر الله وأرجع إلى رشدي وأتمتم:

- عليك يا مسعود أن تعرف قدرك.. رحم الله امرءا عرف قدره.

ثم هل يهمهم فعلا الحديث عن التاريخ والأدب؟
والله لا أظن ذلك.. فأنا أراهم ليلا من مكاني في الحديقة،
يجلسون في الصالة المضاءة، المفتوحة نوافذها، يقهقهون بأريحية
مطلقة وكأنهم يتبادلون النكت، أما تاريخنا الذي أعرف، فلا يبدو عليه
الجزء، إنه جاد ومليء بأشياء غاية في الحكمة وفي الحزن والألم.. ثم
مالهم ومال الهم والغم والصداع.. بلّغ فمك يا مسعود؟
- لن يصغي إليك أحد يا مسعود لن يصغي إليك أحد، زعق
كوكو ساخرا.

أستدير متوجها حيث السيارات الفخمة الرابضة، أقيم الحراسة،
أتأمل فخامتها وأناقتها واحدة واحدة، بينما تصلني أصوات الساهرين
السعداء من أهل جنة الصنوبر، ضحكات وقهقهات تخترق شرفات
المطاعم الراقية والفنادق الفخمة، والبنيات ذات الطابع الفرنسي
الكلاسيكي الأنيقة، أصوات فيها رنة سعادة تميزها دون خطأ أو تردد،
أصوات تشبه رنة اصطدام أساور الذهب، أصوات تسكن أعماقها
اللامبالاة بكل شيء سوى البحث عن ما يسلي، أصوات تخرج من
صدور مطمئنة محروسة بالعسس، مسيجة بالأسوار العالية، صدور لا
غم ولا هم ولا كدر يعكر صفوها، ولا شيء يذكرها بما خلف أسوار
هذه المدينة المحروسة داخل "المحروسة" الكبيرة المليئة بالأسى
والأحلام المنتكسة والتذمر.

أطرد الفكرة الشيطانية يعذبني إصرارها، تراودني حتى أكاد أقتنع
أن من حقي، بل إنني أولى من هؤلاء بالجلوس إلى الحاجة عذرا،
والنظر إلى وجهها وربما أخذت يدها بين يدي وأحدثها عن أشياء
كثيرة، وأحس مسبقا أنها ستفهمني وسيدور بيتنا حديث دافئ النبرة
له معنى.

لا ألبث أن أفتح كوة أمل أمامي، كي لا أفقد صبري وإصراري في مواجهة قدرتي حتى منتهاء. وأتممت لكوكو الذي حط هذه المرة على كتفي ربما إشفافاً علي:

- اطمئن يا كوكو، مكانتي مهمة عندها وإلا لما أتت بي هنا إلى هذا العالم الوهمي العجيب، ألا ترى أنها اختارتني دون غيري من بين الكثيرين الذين تسحقهم البطالة.. واتمنتني على أملاكها وحدي دون شريك لي، أنا مسعود خريج الجامعة بشهادة عليا في الأدب العربي وآلاف مثلي يجوبون سنوات الفراغ.

أنت لا تدري يا كوكو ما الصدمة وما ارتداداتها حين تعود بخفي حنين، تلفظك أحشاء إدارة، كنت تأمل أن تجد فيها مبتغاك، وظيفة ولو صغيرة تحفظ بها وفيها ماء وجهك أمام أختك وأمك ومعارفك. بقيت دهرا أبحث عن عمل، كنت أطمح في أول الأمر الحصول على كرسي أستاذ مساعد في الجامعة، وبعد تبخر الأمل وطول الانتظار والبحث، أضحيت طامعا في أي عمل مهما كان، فكاد يصيبنني الجنون، فلم أترك مكانا لم أبحث فيه عن عمل، وجربت حظي التعس حتى في مطاعم السمك الشعبية الممتدة على «شاطئ بوسفر» وشواطئ الأندلسيات على الشريط المتوسط، عارضا عليهم خدمتي كنادل أو غاسل صحون وكانت جميع محاولاتي يائسة دون جدوى إلى أن ساقني حظي الذي أضواء فجأة بهذا العمل.

تدفع لي الحاجة عذرا كل شهر ما يكفي لعيش كريم، أبعث منه قسطا لأمي وأختي.

الحاجة عذرا كريمة كرم أهل الصحراء.. انتشلتني من فراغ رهيب قاتل تتوالى الأيام فيه دون طعم ولا حدث ولا لون ولا رائحة، أجوب الشوارع وأنفادي العودة إلى البيت، كي لا أزعج بحضوري الذكوري

الثقيل ضيفات أمي وأختي اللواتي حالما أطرق الباب حتى تنخفض أصواتهن العالية ذات النبرة الشاكية الباكية، إلا أنها أحاديث تبدو ممتعة لهن. أدخل وأنا أدرك بعمق أنهن يستقلن وجودي في شقتنا الصغيرة الضيقة التي ندفع كراءها منذ الاستقلال. المالك الشرعي لها هو القاضي قدور، يملك العمارة كلها من خمسة طوابق، اشتراها بثمان رمزي زهيد من صاحبها «مدام كاترين» الفرنسية، التي كانت معروفة بمواقفها الانسانية والثورية المشرفة، عرفت بوقوفها إلى جانب الحركة الوطنية والدعوة إلى الجزائر المستقلة، إلا أن الأحداث الدموية في الأيام الأولى من الاستقلال جعلتها تضطر إلى المغادرة السريعة.

لا تمل أمي من التذكير بأن «مدام كاترين» التي ولدت بالحي نفسه، كانت تساند ثورة التحرير، وتؤمن بالجزائر المستقلة، وتعتبر نفسها جزائرية. كانت تعامل سكان العمارة بطريقة فيها الكثير من العائلية والإنسانية، ترفض مثلاً أن تستلم الأجرة من أسرة إذا ما مرض عائلها، فلم تكن مثلاً تأخذ أجرة البيت من أبي حين يكون مريضاً، وتعفي منها من يولد له طفل، أو يستجد حدث ما في أسرته، مع العلم أن ثمن الإيجار كان زهيدا جداً..

لا تخفي أمي كراهيتها واشمئزازها من تصرف مالك العمارة الجديد القاضي قدور.

- الجيعان والى فاق.. يصيب رוחو في الزقاق! تقول أمي.

بعد مدة قصيرة من مغادرة مدام كاترين، جمع المالك الجديد سكان العمارة:

- اللي ما يقدرش يدفع.. يحط المفتاح ويروح فحالو يدور على سكنى بعيدة.

سنوات عديدة مرت كنت أكبر، وكان الحقد يكبر بين جوانحي،

ويتخثر تجاه هذا الرجل الذي طالما أبكى أمي. سمعت أبي وأنا صغير، بعد أن أرسل إلينا المالك القاضي قدور، صاحب العمارة إنذارا بالطرد إن نحن لم نذعن لأمر الزيادة في الكراء، كل ذلك على أوراق رسمية فخمة عليها أختام حمراء كثيرة، يبدو أنها من المحكمة التي هو فيها أو على رأسها.. كانت الأوراق ترتعد بين يدي والذي الغاضب الشاعر بالغبن والظلم:

- هذا الحمار شهاداته الجامعية مزورة.. ثم إنه إذا زاد في غيه فوالله سأوليها فوق رأسه لواحد، عندو النجوم فوق الكتاف والشلاغم فوق الشفاف... نتغذى بيه قبل ما يتعشى بيا..

ضحكت أمي من خلال دموعها، كان أبي يتفصد عرقا من الغضب، وعلمت من تفسير أمي أنه كان يقصد لو أن المالك المتجبر يضطرنا للرحيل، فإنه قبل أن يطردنا من الشقة، فإن أبي يهدد بتسليم مفاتيحها لأحد الجنرالات دون تمييز، سيكون أقوى منه، ليطأ بيوطه فوق ورقة القانون التي يلعبها، ويلوح بها في وجوه سكان العمارة، الذين لا حول لهم ولا قوة.. وإذا ما استلم أي الجنرال الشقة فلن يستطيع القاضي فعل أي شيء سوى أن يغني طويلا أو ينوح، ولن يقبض سوى الريح، وعليه فإن القضاء الذي يدير عجلته لإذلال من لا قوة لهم، سيدور عليه، سيدوره الجنرال حول عنقه مثل جبل من مسد وإلى الجحيم أيها العدل.. لكن أبي لم يفعل شيئا، مات مبكرا بسكتة قلبية.. تقول أمي إن الحاجة والظلم تغلبا على قلبه الرقيق المسكين.

كبرت في هذا الجو المشحون، ولم يتغير سلوك صاحب العمارة القاضي قدور، وكلما أرسل لنا رسالة تهديد أو إنذار بقطع الماء، تهرع أمي المسكينة للتوسط بإحدى قريباته..

خلال عدة سنوات طرد القاضي أغلب جيراننا من السكان

القدامى، الذين أعرفهم منذ ولدت، كانوا في العمارة من زمن مدام كاترين مالكتها الفرنسية.. كنت أتألم وأنا أشاهد أمي باكية تودع جارتها القسطنطينية لالة «ملوكة»، التي كانت قرية منها جداً، ثم جارتها لالة «خوخة» القبائلية.. ودعتهم واحدة واحدة، ولكن العجوز يمة زهرة التي كان باب شقتها يقابل باب شقتنا مباشرة، هي من تركت جرحها غائراً ما زال لحد الآن يوجعني كلما حركته..

كم تعلقت بـ «يمة زهور» هكذا كنت أناديها، حتى ظننتها جدتي أو فرداً من أفراد عائلتي. لا شيء يشيها حين أرغب أن تأخذني إلى الحديقة العمومية، وتتجول بي على جبهة البحر في المساء. كل الأطفال الذين في سني آنذاك كانوا يحبونها حبا جما وينادونها جميعاً بـ «يمة زهور».

نزحت يمة زهور أثناء الثورة إلى المدينة بعد أن فقدت أحبتها وما لها، أرضها وبيتها وبقراتها، تعيش وحيدة بعد أن استشهد زوجها وولداها في حرب التحرير. منذ الاستقلال تعيش بمنحة زوجة الشهيد البسيطة لا تصلها بشكل منتظم، إلا أن يمة زهور لا تشتكي أبداً صبورة كما يليق بامرأة حكيمة مثلها..

ذاك الصباح، استفتقت على صوت أمي الباكي وهي تنظر من النافذة، وتردد:

- ولد الحرام ولد الحرام.

من عادة صاحب العمارة القاضي قدور أن يأتي كل جمعة، وأيام العطل والأعياد، يقف نافخاً صدره في الطرف المقابل من الرصيف، يتأمل عمارته الشاهقة، يأتي وكأنه يذكرنا نحن سكانها أنه سيدنا، وولي نعمة سكننا، وأنه لولاه لبثنا في الشارع، وأنه القادر أن يفعل بنا ما يشاء. يتخيل لي أننا نبدو له مثل فئران تغزو عمارته، وأنه ينظر إلينا

باشمئزاز..

اليوم ليس جمعة ولا يوم عيد ولا عطلة.. غريب.. لماذا جاء.. ليس من عادته.. والأغرب من ذلك أن أشخاصا غريبين يرافقونه، ويبدو أنهم من المحكمة أيضاً، ويوجد أربعة رجال أمن حوله يبذلهم الزرقاء الأنيقة، وبينما كان يحدثهم باسماء وهو يمدد عنقه إلى أعلى وعلامات الانتصار بادية على وجهه، كان هناك رجال منهمكون في إخراج حاجيات يمة زهور، الغائبة عن شقتها ذاك اليوم.

بعد أن فتحوها بالقوة، بكسر القفل تحت نظر السيد اللوسي (المحضر القضائي). أخرجوا حوائج يمة زهور القديمة وأوانها وأشياءها العزيزة عليها، على الرغم أنها ليست ذات بال ولا ثمن. لم أكن أتخيل أن توضع تلك الحوائج خارج مكانها، لا معنى لها خارج مكانها الذي أراها فيه منذ ولدت، كنت أظن أنها جزء من مكانها ومكانها جزء لا يتفرق عنها.

كانوا شدادا يضعون كل ما يحملونه أو يجرجرونه من حوائج يمة زهور على قارعة الطريق.

بعد أن أفرغوا الشقة من آخر ملعقة بها، وضعوا حذاءها القديم، فوق الكومة التي بدت رثة، ذاك الحذاء الذي كانت تنتعله بدل حذاء الخارج حالما تدخل شقتها، كي تظل الأرضية نظيفة.

أحكموا إغلاق باب الشقة بسلسلة حديدية أحدث صداها قرقة مزعجة في العمارة، سلسلة ضخمة عليها أقفال، حركوا السلسلة بقوة ليتأكدوا أنها لا تلين أبداً، نظروا إليها وكأنهم يتأكدون من إتقان عملهم ثم مدوا أيديهم لبعضهم مصافحين، وقد بدا على الجميع الراحة من إتقان مهمتهم، قبل أن يركب القاضي ومن معه سياراتهم، ويصفقوا أبوابها بقوة عجيبة، أرهبت قلبي الصغير، ثم غابوا.. غابوا عن الأعين.

يدو أنا أنا وأمي، لم نكن وحدنا نتابع ما يحدث من شقتنا من ثقب المفاتيح والانفراجات بين لوحات خشب النوافذ، بقية السكان لم يكونوا غافلين وغير مكترئين لما يحدث، أيقنت أنهم مثلنا، ما فتوا كبارا وصغارا يتبعون ما يجري بمنتهى الاهتمام وربما الخوف والفرع، ولكن اليقين بالمزيد من الكراهية.. فكيف يمكنك أن تحب من تخاف منه.

حالما هدا الزقاق، خرجت برفقة أمي، واندفع بقية الجيران من خلف مخابثهم وأماكنهم الاستراتيجية لمتابعة ما حدث.. تجمعنا نحن الأولاد على صمت وقلق، كانت أسئلة منغصة بقلوبنا ينعكس ظلها في عيوننا الحزينة المندهشة عما يفعله الكبار ويقدمون عليه، من أشياء غريبة وقاسية. أحطنا عن قرب بكومة حاجيات يمة زهور، استغربت: كيف تمكنوا أن يلموا كل بيتها في هذه الكومة الصغيرة، وأنا الذي كنت أحسب أن يمة زهور أهم إنسان أعرفه، ليس في العمارة فحسب، بل في الزقاق كله، في المدينة كلها، بل في عالمي بأسره. يمة زهور التي يحترمها الجميع، كبارا وصغارا يقدرونها إلى درجة التقديس، هي الحكمة التي تصالح بين الجيران بهدوء وتنصحهم وتسعى دائماً في الخير ولا يقع كلامها الأرض كما تقول أمي.

لم ترجع يمة زهور إلا عند المساء..

وبينما هي تقترب من الباب الخارجي للعمارة، تعرفت على أشياءها، وكأنها أدركت بسرعة ما حدث.. وقفت يمة زهور صامته لحظة، بينما كنت مختبئاً أبكي بصوت مخنوق، اقترب منها الجميع بلا قوة ولا حول، لم يجدوا ما يقولونه لمواساتها:

- الله ياخذ الحق يا يمة زهور!

- الله يجيها لو يا يمة زهور!

- الله يكون في عونك وعونا منو!

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

اجتمع السكان حول يمة زهور التي لم ترمش لها عين، ولم تنبس ببنت شفة، ولم تحرك عضوا من جسدها الهرم النحيف المتعب المتهالك.

كانت أمي أولى المستقبلات لها، متحشجة النفس متقطعة، دامعة العينين، دموع العاجز أمام قدر الأقوى وقوته وجبروته. حضنتها بقوة ودعتها للدخول عندنا، لكن يمة زهور فكت الأذرع المحيطة بعناقها بصمت، وهي لا تزال تنظر إلى كومة حوائجها، ثم أخرجت مفتاح الشقة بهدوء من كمها، ووضعت فوق الكومة الرثة المائلة مثل قبر جندي مجهول، فوق حذائها القديم النظيف.

لم أر دموعا في عيني يمة زهور، لكنهما كانتا تبرقان مثل نجمتين بعيدتين في الظلام، خرج صوتها متهدجا بحسرة.

و دون ذل رفعت رأسها نحو السماء ثم قالت بثبات وكأنها تتوجه بالخطاب لأشخاص معينين.. كأنها كانت تحدث زوجها وابنيها الشهداء:

- شوفتو يا الشهداء واش راه يصرا؟.. إيوا نقول كم السماح وما تلومونيش.. وتحيا الجزائر.

رفضت يمة زهور اقتراح الجيران وإصرار كل واحد لإيوائها في شقته، اعتذرت بشموخ ثم عانقت جاراتها واحدة واحدة مودعة بحرارة وصمت ملغوم، وقبلتنا نحن الأولاد، وحين اقتربت مني مسحت على رأسي وضممتني إلى حضنها الدافئ كالعادة، فسمعت لأول مرة دقات قلبها النافرة وكأنها طبول قوية، حتى تخيل لي أن الناس جميعهم

يسمعونها مثلي، قبلتني على جيني ثم قالت لي:

- ان شاء الله يا مسعود وليدي تقرا مليح، وتكبر وتولي قاضي انتاع الصبح.. قاضي نتاع العدل..

ابتعدت يمة زهور في هدوء جهة جهة البحر.. كدت أن ألتحق بها أن أتشبث كالعادة بأطراف ثوبها.. لكن كل شيء تجمد حولي لم أعد أسمع شيئاً، فراغ رهيب في رأسي الصغير، وكأنني أصبت لحظتها بالصمم.

توجهت نحو جهة البحر التي تحبها، ولطالما أخذتني في نزهات تحت نخيلها الذي يطل على البحر من أعالي قاماته الممتدة في الهواء، نسير وسط الناس والعشاق وبائعي الورد والفواكه المجففة والمشروبات الباردة والساخنة.. نتمشى بين الناس وكأن الجميع يبحث عن شيء، يتمشى الناس على طول الجبهة وممراتها ذهاباً وإياباً بينما البحر يبدو هناك تحت المرتفعات، هادئاً أو هائجاً لا يهم..

ابتعدت يمة زهور حتى اختفت عن أنظار العيون الدامعة.. كنت أرى خطواتها الثابتة تعلو شيئاً فشيئاً وكأنها تتجه نحو السماء.. نحو فضاء مجهول.

دخلت رفقة أمي شقتنا، وفعل ذلك جميع الجيران وفي القلوب غصة.

ها أنا كبرت يا يمة زهور ولم أصبح قاضياً عادلاً، لكنني أذكرك في سمائك حيث أنت، كم أوجعتني باختفائك، بل كم أوجعتنا جميعاً مساء ذاك اليوم نفسه، حين قررت الرحيل المباغت.

هل أنا واهم.. هل اختفيت فلم يعثر لك على أثر.. أم فعلاً جاء خبر القائك بجسدك النحيف المتعب الحزين من على مرتفعات جبهة البحر؟

كانه كابوس استيقظت فيه لأرى سكان العمارة وقد فتحوا بيوتهم
لعزائك، كأنني أسمع أصوات النساء الصارخات وإطراقة رؤوس
الرجال ونشيج الأطفال المخنوق حزنا على فراقك.. لم يخب حبي
لك على الرغم من كل شيء يا يمة زهور.. لماذا لماذا اختفيت؟
كأنني حلمت أنهم أخرجوا جسدك المسجى من بيتنا، وأن
الزغاريد انطلقت حين حملوا جثمانك المهشم الجريح وهم يهتفون
مرددين:

- الله يرحم الشهداء.. الله يرحم الشهداء.

كأنني رأيتك تفتحين بابك ثم تميلين نحو طرف الزاوية تبدلين
حذاءك القديم النظيف بالآخر الذي تلبسينه للشارع.
قال الصبية إنهم رأوك تمرين أمام المدرسة هادئة كعادتك. كم
كنت أبحث عنك في طريقي إلى المدرسة، علني ألقاك صدفة وأرتمي
لأختبئ في حضنك باكيا، تهزني مشاعر عنيفة لا حدود لها.
زاد تدمير السكان مع موعد استقبال الذكرى العشرين للاستقلال،
وزادت كراهِيتهم للقاضي صاحب العمارة، وللمحكمة التي يتدثر بها،
وزاد رفضهم للظلم واستغلال سلطة المنصب.

لم يعد يبهجني السير على منزه جبهة البحر الذي يطل على
البحر الأبيض المتوسط، لم يعد له ذاك المذاق ولا تلك الرائحة
التي كانت تختلط في دماغي الصغير غير المكتمل برائحة حضنك
الطيب الحنون، تشبه عطوره رائحة التمر الناضج، وأنت توزعين
عطفك وحنانك علي وعلى الصغار من حولك وكأننا أطفالك أو
أحفادك، وكم كانت الكلمة الحارة تخرج عبر حلقك وكأنها تصدر
من عالم مجهول خارق، معجون من مزيج من الحزن والافتخار
بولديك الشهيدين:

- مسعود أنت شحال تفكرني بولدي الشهيد احميدا.. كي كان صغير ربي يرحمو..!!

لأول مرة تساءلت عن الموت عن فحواء وسره، كيف يختفي وجود شاسع مثل يمة زهور.. أي مكان آخر يستطيع احتواءه؟ ثم لماذا؟؟

من يستطيع أن يجيب على سؤالي؟
لم تستطع أمي أن تقنعني أنك لن تعودي أبدا، ولن نسمع صوت مفتاحك وأنت عائدة في المساء تفتحين بابك مقابلنا، تجرين تعبك بينما يلعب الحنان والابتسام الدائم في عينيك العميقتين الغائرتين، لم تستطع أن تقنعني أنني سوف أقوم من فراشي صباحا ولن يقع بصري عليك أبدا.

ما زالت دهشتي من ضيق المسافة الزمنية قائمة ما بين وقوفك على كومة أثاثك القليل مرميا خلف الباب، وخبر واختفائك المفاجئ.
- إلى أين أردت الذهاب يا يمة زهور؟

قالت لي أمي حينئذ أنك لم تقرري الرحيل لأن القاضي قدور طردك من دارك، بل لأنك اخترت دارا أخرى أوسع وأجمل.. كانت أمي تطمئنني وكأنها تعزي نفسها. حلفت لي أنك في جنة حقيقية تعمين فيها، ووصفتها لي بكثير من الدقة والتفصيل حتى تخيلتك حورية هائلة البال تتجولين بين الأشجار المثمرة وبين سواقي العطر والعسل.. صدقتُ كلام أمي آنذاك.. لم يكن لي خيار آخر ولكنني تمنيت أن تعودني.. أن تعودني بعينيك، بنظراتهما الطيبة اللتين ظلتا تشعان في ذاكرتي، وبقلبك الصبور، ورائحة التمر الناضج التي تفوح منك.

منذئذ يمة زهور وأنا أتساءل عن صحة ما كنت تؤكدين عليه، وأنت تسردين علي قصصك عن الثوار والشهداء وتمتعيني بحكاياتك الشعبية، تصرين على أن الخير ينتصر على الشر دائما وحتما، وتضربين مثلك القوي عن مصير الاستعمار الذي انتهى على الرغم من بقائه قرنا ونصف القرن..

- الخير ينتصر على الشر يا مسعود يا وليدي..

- الشر ينتصر على الخير أيضا يا يمة زهور؟؟

لعل قصصك، الواقعية منها والتي من صنع خيالك وتساؤلاني حولها، جعلتني أنضج سريعا إلا أنني ومنذئذ يا يمة زهور لم أر إلا الشر يتغلب على الخير، والأشرار من الناس ينتصرون على الخيرين فيهم.

لم أصبح قاضيا يا يمة زهور كما كنت تودين.. لا لكي أملك العمارة وخيوط لعبة القوانين التي تسهل لي طرد سكانها وإذلالهم وغايات أخرى ولا لكي أملك القوة الطيبة، وأن أحكم بالعدل، وأراف بالناس من الظلمة والحقارين.. كرهت «دراسة» القانون إنه ثقيل على قلبي يا يمة زهور حاولت من أجلك، ولكنني عدلت عن ذلك بعد قناعتي أن لا مفر، فأنا أستثقل هذا العالم وأمجه. فقررت التوجه نحو اختصاص الأدب العربي القديم، أعرف أنه لا يعني لك الأدب العربي القديم شيئا أنت التي لا تعرفين ولا تحفظين سوى الحكايات والأشعار والأمثال الشعبية الأمازيغية..

درست بجدية حتى تحصلت على شهادات جامعية، زغردت لها أمي وأختي ونساء العائلة إلا أنها بقيت معلقة على الجدار كما بقيت معلقة تلك الزغاريد في الهواء، وبقيت معلقة على حبل الأيام المتشابهة، على أمل أن أعثر على وظيفة تحفظ كرامتي أمام نفسي

وأمام أمي التي ما زالت تعيلني مما تجود به آلة خياطتها التي قوست ظهرها وأضعفت بصرها.

لم أخرج من قاع البطالة والخيبة يا يمة زهور، إلا بعد أن اشترت امرأة رائعة تدعى الحاجة عذرا العمارة من ورثة القاضي قدور.. لقد قضى نحبه بعد مرض عضال، ورثة مزقههم الخلف حول تركته. فملأوا بدورهم المحاكم ضجيجا. لطيفة وفاتنة تلك الحاجة عذرا المالكة الجديدة للعمارة، جاءت من العاصمة وما أدراك ما العاصمة، وكان حظي كبيرا حين التقيت بها صدفة، وصدفة حدثتها عن مشكلتي مع البطالة التي طالت واستطالت، فافترحت علي بصدر رحب الانتقال إلى العاصمة للبقاء في فيلتها بنادي الصنوبر وما أدراك ما نادي الصنوبر.. الحاجة عذرا تحتاج إلى من يملأ الفيللا الفارغة أغلب الأحيان.. أظل بها كي أحرسها حتى لا تبدو مهملة وتجذب الطامعين، فلم أتردد لحظة، لم أطرح سؤالا ولم أستفسر عن شيء كنت أريد فقط أن أقبل يدها اعترافا بجميلها الذي لا مثيل له، أخرجتني به من أيامي الرطبة الحلزونية، كنت فيها سجين الفراغ.

أصبحت حارسا... حارس يعني عساس يا يمة

نعم يا يمة زهور أنا عساس.. كانت سنوات دراستي طويلة وأنا الآن والحمد لله عساس.

وأي عساس.. سيد العساسين.

العسس خُلقوا درجات أيضاً.. أن تعسّ في نادي الصنوبر ليس كما تعسّ على حانة الوفاء.. مثلاً.

أنا الآن أعسّ في نادي الصنوبر، قطعة من جنة عدن وسط الجحيم، كأنها جزيرة خيالية مصورة بإتقان وتوأدة، بها بحر وخضرة ووجوه حسنة، بها ما لا يوصف ولا يدرك ولا يرى، وبها فرح الصباح

وسهر الليالي الملاح.

نادي الصنوبر يا يمة زهور، خمسون هكتارا اقتطعت من جنة الله العليا وأنزلت إلى الأرض السفلى، فيها روض عاطر يسر خاطر ويهيج الناظر.

في الزمن الأول كان يأتيها المعمرون الفرنسيون للراحة والاستجمام، للانغماس في بحر وشمس من الحرير الشفيف والقطن الرهيف، من أجل السكينة والراحة والاستجمام بعيدا عن ضوضاء الأهالي الحثالة وغمتهم، وأوجاع الرأس منهم ومن وجودهم. وفي الزمن الثاني خرج منها المعمرون دخل جنتها الموعودة منعمون آخرون، بعد أن توسعت جدا وأصبحت نعيما كل ما فيه يشع منه السرور والحبور. محصنة بالأسوار العالية، محروسة آمنة، نائمة في العسل يقطنها عليّة القوم وأسيادهم، وكأنها جزيرة سرقت من عالم ألف ليلة وليلة، مدينة داخل مدينة، بل وطن لهم داخل وطن لآخرين، حتى سماءها لا تشبه باقي سماء المدينة، سماء طيبة حين يحملون مظلاتهم يهر المطر منها فورا، وحين يرتدون مايوهات السباحة يطيب الجو لهم وتشتعل شمسها ويضحك البحر السخي، البحر المدجن، بحر لهم وحدهم خاضع خانع خاشع، مثل جواد مروض لا يرفع صهيله الغاضب في وجوههم، ولا علاقة له بأخلاق البحر الأبيض المتوسط، ولا بعادات البحار الأخرى حين تغضب، وحين تفيض على من يركبها، بل إنهم حين يرغبون في دخوله رفقة حبيباتهم الجميلات النازلات للتو من أغاني الراي، تصفق الشمس وتشر عن سواعدها لإسعادهم، ويستكين الرمل وهو يئن مثل كلب أليف خائف. من يعرف...؟ ربما على مضض.

أنا عساس يا يمة زهور، والعجيب في الأمر إصرارهم على أنهم

يشبهونني.. عساسون أيضاً.. بدورهم يعسون مثلي على البلد، كلنا عساس ووكلنا مسؤول عن ما يعس عليه. إلا أنهم لا يشبهونا يا يمة زهور فهم عسس يسكنون قصورا، ليس مثلها ما رأته عين ولا صورته جنون خيال. أقرب إلى الوهم. أستغفر الله يا يمة زهور وسامحيني إن قلت لك أنني لا أدري هل الشهداء يسكنون في سماءات الله وجناتها مثلها. إنهم هنا مرتاحون، يتعمون يتمايلون بين سواقي الحليب والعسل وبت العنب. لم يستشيروا أحدا ولم يختبرهم أحد لكي يعيشوا في هذا البذخ الذي تؤمنه لهم خيرات الذهب الأسود السخي. ثم ليس يهم أن لا يختبرهم أحد، ولا يهمهم ما يقال وما لا يقال، ولا يهمهم الأنين في الجهة الأخرى للسور الخارجي، ولا يهمهم هم الدهماء وضجيجهم وروائحهم ومشاكلهم التي لا تنتهي وشكواهم التي لا تنقطع..

المهم يا يمة زهور أنهم ليسوا مثلنا، ليس يهددهم أحد بالطرد ولا الزيادات في الأجور مثلما فعل معنا القاضي قدور.

نعم بعد كل هذه السنوات إن سألت عني يا يمة زهور، فأنا عساس.. عساس بخمسة نجوم أو ستة بالأحرى.. سامحيني إن لم أصبح قاضيا ولم أحقق لك أمنيته في، لكن صديقي يمة زهور أعدك أنني سأكون عساسا أحسن وأنظف من القاضي قدور، لسبب بسيط ومقنع، وهو أن الطارقية الساحرة الحاجة عذرا مالكة العمارة، امرأة بألف قاضي قدور.

باب الحيرة

أقوى ما في الحب هشاشته .. (ربيعه)

يا ربي ما الذي يحدث لي..

فككت عن رقبتى فكي غول البطالة، فوقع قلبي في جب الحب.
يبدو أن الحب لا سن له؟ ولا منطق له ولا حساب.. قد يصيبك
سهمه متى ما شاء وليس متى ما شئت.. لا مهرّب لك ولا أمامك
إذن، أنت معرض لانقلاب ع.. اطني في قلبك مادام يدق.. القلوب
في أزوماتها قد تتوقف دقائقها فجأة بسكته عند الكبير كما عند الصغير،
لسبب أو لآخر، فينتهي وجودها، ولكن المؤكد أنها مادامت تدق،
فإنها مثل جرس لطيف أو ناقوس خطر، تنذر بخلل آت في الأفق،
والحب خلل لذيذ.. قلبان يدقان في صدرك.

وماذا يعني أن أكون أصغر بقليل من الحاجة عذرا، فأنا
كبير بتجاربى المرة في الحياة، وبالعلم والمعرفة. فإذا كانت الشهادة
العليا التي حصلت عليها لم تؤكلني الخبز، وتضمن لي حياة كريمة
فإنها على الأقل علمتني تذوق الحياة؟

أليس هذا كاف لكي أجد لي سببا واحدا مقنعا لوجودي، وامتنازا
ولو ضئيلا لي في قلب الحاجة عذرا؟

والله جنتني هذه الجميلة الطارقة القادمة من أسرار قلب الصحراء..

أليست من العصر الأمومي.. أنا مستعد إن تزوجتني أن أتبعها حيث تريد، أعيش معها في الصحراء إن هي عادت إليها.. ولتفعل بي ما تريد.. أما ما أريده أنا فحسبي أن أكون قريباً منها.. لعلني أهذي.. هبّلتني.. والله.. لست أدري بالضبط ما الذي يأسرنني بها.. ربما لأنها تشبه حبيبات الشعراء الجاهليين.

والله لا أعرف..

كلما مرت، لتعبر الباب إلى مدخل فيلتها بنادي الصنوبر أرتجف، ويشع الضوء ساطعاً بقوة في عيني، لا وقت يبقى لي كي أستغرقه للنظر إلى جسمها الضخم الملفوف في لباسها الطارقي. طريقة لباسها لم تبدلها بزي آخر، وأساور الفضة تزهر في معصمها وعطرها الغريب المدوخ الذي يتغلغل في دون رحمة.. لعل أكثر ما يشد نظري أنفها ذاك، عال مستقيم دقيق وكأنه يرفع السماء على قمة أرنبته، وحين تختفي داخله أو خارجة إلى فيلتها، يظل في مخيلتي يتراءى شامخاً، ثم لا ألبث أنظر إلى السماء أبحث عن الله أدعوه.

هذا ما فعله بي ربي
لم أخبر أحداً من قبل ولن أخبر أحداً أبداً.. هذا سري أنا لوحدتي..

أعلم أنني مختلف وأن ذوقي لم يعد يتماشى مع قوم هذا الزمن
الأخرق هذا العصر الأهبل..

- أي عصر، أي عصر هذا يا إلهي!..
هؤلاء أنصاف رجال لا ذوق لهم ولا ذائقة، فهم لم يقرأوا جواهر

الشعر العربي القديم مثلي، فقصائده تعج بالغزل العالي الرقيق الخالد
الفخم الذي يبجل جمال المرأة المكتنزة، تملأ ثيابها حتى التمام، نؤوم
الضحى، بطيئة، مدللة، غنوج، متمنعة، دافئة النداء، لذيدة النبرة. هي
هذه المرأة المثلى. من النساء اللواتي يحركن السواكن، وليس أولئك
اللواتي يدخلن في سراويل الجنز مثل أقلام «بيك» البلاستيكية..

هصرت بفودي رأسها فتمايلت علي هضيم الكشح ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل
كبكر المقناة البياض بصفرة غذاها نمير الماء غير المحلل
تصد وتبدي عن أسيل وتقي بناظرة من وحش وجرة مطلق
وجيد كجيد الرثم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل

يا له من جمال يا له من وصف.

منذ نعومة أظافري فتننت بحكاية دارة جلجل، بشيطنة ذاك الأمير
الضال المدعو امرؤ القيس..

كيف خطرت ببال امرئ القيس تلك الفكرة الجهنمية والذكية،
فكرة خطف ثياب المستحلمات بالنهر، بالاستيلاء عليها ودسها بعيدا،
ثم لا يقبل شيئا لتسليمها لهن سوى أن يظهرن عاريات أمامه، متجهات
لأخذها ثم ارتدائها ليتسنى له رؤيتهن مقبلات ومدبرات..

- المخبول الرائع!!!!

ليتني كنته.. ليتني عاصرته. ليس أمرا هينا أن تكون لك ذائقة
مختلفة، تنمو معك وفيك دون أن تدري بذلك، ودون خلاص لك
منها، لا يأتي هذا بين عشية وضحاها، إنه خلاصة بداية حياة سترسم
فيها وستظل موشومة تسم ما تبقى منها.

وماذا بعد.. ليس بالأمر السيء أبدا أن أكون مختلفا، هكذا أفهم

وأحس..

منذ بدء أعاصير المراهقة، حين بدأت أشعر بتغيرات غريبة في جسمي ونفسي، تبدلت الأشياء ورؤيتها. حتى حالي الصوتية أضحت تتصلب فتراوح بين الأجش والرقيق، حتى أنني أحيانا كنت أكاد أضحك من سماع صوتي وأصوات زملائي التلاميذ حين نكون بصدد تجاذب أطراف الحديث أو عرض المحفوظات من القصائد، يختلط الأمر علي فهل نحن نتكلم أم نكُح ونسعل.

مثل زملائي، جبلت على حفظ القصائد المطولة من الشعر القديم وما زال يرن في أذني قول الشاعر أشجع بن عمرو.
وما جئت كموج البحر بين ثيابها يميلُ بها شطرٌ، ويعدلُّها شطرٌ

مدرسنا للغة العربية، الفلسطيني السيد جليل إبراهيم خضر، يصلي في القسم من حين لآخر ركعات للاستغفار فقط، كما كان يسميها، لم يكن يخفي ضعفه حيال قصائد الغزل القديم والجاهلي منها على الأخص، ولم يكن يختار لنا غيرها، ولم يكن يتحرج في تفسير الأبيات بيتا بيتا. كم كان يبدو على غاية من التمتع وهو يفتت معانيها إربا إربا ويعيد ترتيبها أمامنا بكل تفاصيلها الحسية الدقيقة، حتى الحميمية منها الموغلة في الوصف غير العفيف كما كان يسميه وينعته.

لست أدري كيف وأين كان يجد تلك العبارات والكلمات القوية الموحية المتفجرة، فيأخذنا على جناحيها نحو زمن أصبحنا نعرف عنه كل شيء أكثر من معرفتنا بهذا الزمن الذي نعيشه ومحياه ونتنفسه. كأن لدى أستاذنا الفلسطيني جليل إبراهيم خضر رغبة في الهروب، لست أدري ممَّ ولِمَ، ربما كان يفر من عالم الهزائم، إلا أنه لا يذهب

في هروبه وحده، بل يأخذنا جميعا، وكنا نفعل ذلك عن طيب خاطر، نتنقل بين القبائل العربية بشبه الجزيرة، بعاداتها وصدادات الثأر بينها، وحكايات العشق وأخبار العاشقين فيها، ورحيل أهلها وحروبهم وشعرائهم وأطلالهم وأنافيههم وآثارهم وأسواقهم، والعلاقات الغريبة الساخنة بينهم، وأسماء النساء، وأخبارهن، وأوصافهن، ومقابلهن، وبعض أشعارهن، وأسماء الأحصنة والأمكنة والقصص الدائرة بين القبائل.

كم كان يشدني حديثه ويأسرني ويقنعني، إلى درجة أصبت فيها بعدوى الجاهلية.. استمرأت ذلك والحق يقال حتى أنني مرة طرحت السؤال على المدرس:

- يا أستاذ.. كل هذه الدرر من القول وصلت إلينا من هذه المرحلة من التاريخ.. أليس من الجحود أن نطلق عليها اسم الجاهلية؟ من بين جميع التلاميذ، يبدو أنني كنت المصاب الأكثر جدية، بحالة الوهج والبريق الملتصع في عيني المدرس، حين يردد القصائد، وحين يستعين للدلالة والتوضيح والشرح بالإشارات الكثيرة من يديه وذراعيه ورأسه، بينما يقرأها القصائد عن ظهر قلب.

حين كان يوغل في تفسير أوصاف المتغزل بهن من معشوقات الشعراء القدامى، يسبح مدرسنا الفلسطيني جليل إبراهيم خضر في عالم غريب مجهول مواز، حتى لنكاد نظن أنه هو صاحبها وليس الشاعر المزعوم. عيناه كانتا تغييان وتغيينا معه إلى عالم وزمن غابرين.. غابرين إلا أنهما أشد حضورا من أي شيء ملموس حولنا. كنا ننتظر بفارغ الصبر من بين عناصر الدرس الأخرى عنصر الوصف، فإذا بنا وكأننا أمام شاشة عظمى، نحول إلى عيون ساهمة، وأذان صاغية، مسامات فاعرة فتحاتها على أشدها، نتعرق بغزارة حين تبدأ

جدية وصف معشوقة الشاعر. يسود الصمت، ينهمك خيال كل واحد منا في رسم ملامحها وتلوينها كما تمليه عليه طاقته التخيلية وثرء مخزونه الجمالي والحسي.

نخرج من القسم ونحن نردد الأبيات الغزلية، أشدها رهاقة وايحاءات جنسية ساخنة واضحة لامرئ القيس:

وبيضة خدر لايرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل
تجاوزت أحراسا اليها ومعشرا علي حراسا لو يسرون مقتلي
إذا ما الثريا في السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل
فجئت وقد نضت لنوم ثيابها لدى الستر الا لبسة المتفضل
فقلت: يمين الله مالك حيلة وما ان أرى عنك الغواية تنجلي

وبينما نحن نترك القسم في صف واحدا واحدا، نحاول أن نغطي بأكفنا البلبل الذي طفا فوق السراويل وانفضح، بينما لا تزال ترن في آذاننا الفتية الأبيات، تهادى أمام أبصارنا الصور وتزلزل أجسادنا المراهقة الحارة قوة القصائد النارية.

أصبح أمرا طبيعيا.. لم نعد نأبه له، ولم نعد نتغامز أو نتضحك من حركة الأستاذ الغريبة، وهو يحك من حين لآخر مقدمة سرواله، فقد صرنا نقلده ونفعل مثله ولا نرى في ذلك حرجا، بل نجد في الأمر شيئا طبيعيا يدل على أننا مشاريع رجال بالغي الذكورة، يفهمون في الفحولة مثله، هو الذي يمتلك علما غزيرا وفهما عميقا بأسرار الحياة، ويحفظ القصائد الغزلية الطويلة المعتقدة، التي ولدت مع ولادة الغزل ومع أول آهات العاشقين في الجزيرة العربية، إنه يفهمها ويحللها ويفسرهما ويفتت رموزها أمامنا مثل حبات الرمان رمزا رمزا، حبة حبة، ويفكك ما صعب على فهمنا منها إلى جزئيات مجهرية، ثم

يجمعها أمام أعيننا العارية حرفا حرفا، حتى تتكور الجملة الشعرية بدهشة ويستقيم المعنى.. المعنى الذي نشوق لبلوغ ذروته والتشبث به، ثم يكاد يختلط الأمر في أذهاننا إن كان فعلا هو المعنى الذي في بطن الشاعر القديم، أم في الحقيقة أنه من بنات أفكار المدرس الفلسطيني جليل إبراهيم خضر، وفي بطنه. وفي كلا الحالتين تأخذنا المتعة من أطراف أجسادنا الفتية، تجنح بنا، تملأ بمائها الزلال مساماتنا خلال النهار وأطراف الليل، وتمدد على فراشنا المؤثث بالجماليات الممتلئات اللذيذات الشهيات الراغبات المتمنعات، تتعاضض على أسرة سرية فوق جغرافية أحلامنا اليقظة منها وغير اليقظة.

سألتها قبله ففزت بها بعد امتناع وشدة التعب
فقلت بالله يا معذبتني جودي بأخرى أقضي بها أربي
فابتسمت ثم أرسلت مثلاً يعرفه العجم ليس بالكذب
لا تعطين الصبي واحدة يطلب أخرى بأعنف الطلب

- الله عليك.. الله يخليك.. صحيت يا أبا نواس...

أنا لست كهؤلاء السفلة الجهلة، لا يفقهون شيئا في عالم النساء والغواية والجمال، لم يقرأوا قصائد أبي نواس وامريء القيس حين يتغزل بالجماليات الفاتنات السمينات الممتلئات.. أنا إنسان رفيع الذوق أفهم في الحس الجمالي الحقيقي، الجمال الذي ما زال يتجلى في الشعر والذاكرة، وما نحن بدون الماضي ودون الذاكرة.. لا شيء.. ومع ذلك أدرك في قرارة نفسي أن هؤلاء الذين يدعون الحداثة وما بعد الحداثة.

- كم يضحكني مصطلحهم «ما بعد الحداثة» هههههه....

سييدون حتما استغرابهم واندھاشهم من مخلوق مثلي، وسيعتبروني محنطا أكل على ذقني الزمن وشرب، وأنني متخلف لا أجاري الواقع المعيش كما يصرون على تسميته في كلامهم المقعر.

- لا.. أنا متيقن أنني على حق وأن ذوقي سليم وعال، فقط أنا من الناجين القلائل، من المحظوظين، لم تسحقني حرب الدعاية العالمية التي تطارد الناس حتى في بيوتهم، حتى وهم يتمددون فوق أسرتهم. حرب الدعاية التي تتابعك مثل قدرك، منذ صرختك الأولى عند هبوطك الاضطرابي من بطن أمك، فأنت تُوجَّه عن بعد، وكأنك جزؤ كهربائي، تنبج بالكبس على زر صغير، وترتمي على ظهرك بالكبس على زر آخر وتمسح بالأقدام بمجرد لمس زر ثالث، تملي عليك ما عليك أن تحبه، وما عليك أن تكرهه.. تحاصر رغباتك الجنسية بعاصفة البورنو، تقلع جذور شجرة الإنسان فيك، فتشوه وتمرض نفسك، ولا تدع حديقة خيالك تزهر.

الدعاية تتحكم في حواسك الخمس.. لا حاسة منها ملكك، عليك فقط أن ترى ما يجب عليك أن تراه وتعجب برؤيته، وأن تسمع ما يجب عليك أن تسمعه وتعجب بسماعه، وتشم ما يجب عليك أن تشمه وتعجب بتنسمه، وتلمس ما يجب عليك أن تلمسه وتعجب وتتباهى بلمسه، وأن تتذوق ما يجب على لسانك أن لا يمل من مدحه.. الدعاية التي تسحق العالم كله، وتسحقك، وأنت ذرة منه لا معنى ولا وزن لك، كأنك حجر صغير غير مرئي، محصور بين الصخور في جدار ضخم عملاق لا متناه.

- لا... هاهاها.. أنا مسعود رأسي خشن.. لا ماريكان ولا

لاشين..!

لن تهزأ مني هذه الجراء الكهربائية التي دجنت حواسها ماكنة

الدعاية.. ولكنني سأظل وفيا لما تعلمته.

- اللي ما عرفكش خسر.

ثم إنني لست مجبرا أن أخبر أحدا بسري.. أنا رجل أحب السمينات اللواتي يشبهن محبوبتي الطارقة الحاجة عذرا ومحبوبات امرئ القيس اللواتي يشبهن الأبقار البيضاء أو المرقطة أو الملونة، الحوامل منها خاصة.

تسير على مهل بخيلاء، وتهش بذيلها، فترتجف أكوام اللحم على جنباتها في كرم، ترفع الذراع منها، فلا يفصل الزند عن الصدر من سخاء اللحم والشحم، فيتكهرب الجو بصدمات الرغبة ولا يهدأ، وحين ترمي خطواتها يفتح الهواء الطريق لها ذراعيه وكل شيء منه، وهو يتنفس رائحتها راجفا. إنه فن النظر يا سادة.. ليس الأمر لعبا.. بل إنه جنون المجنون أو أبي صخر الهذلي:

تكاد يدي تندي اذا ما لمستها وينبت في أطرافها الورق الخضر

- هههه.. كم يضحكني هؤلاء الرجال الذين يسيل لعابهم وهم يتفرسون في المارات من النساء، نحيفات شاحبات وكأنهن على مرض عضال، تكاد أصوات قرقرة عظامهن تُسمع، يتحركن مثل أسلاك الكهرباء المسننة، وهن يمشين مثل أقلام رصاص منجورة.. يا إلهي.. أريد أن أفهم.. كيف يشعر أحدهم بالمتعة وهو يعانق بقايا سمكة؟ كيف لا ينغص عليه الشوك الذي يغرز في صدره وبطنه وكلتيه وركبتيه ويجمد الدم في عروقه؟؟

يفتح هؤلاء متخلفو الذوق، أعينهم على مصراعيها، حتى تنزلق من محاجرهما، وهم يورقون المجلات الأوروبية، يتصفحونها بمحنة البحث والتنقيب عن نساء أوروبيات عاريات، بلا أوراك، ولا صدور،

ولا أكتاف، ولا أفخاذ، ولا بطون، ولا ترائب، ولا أعناق، ولا حدود،
ولا أوداج. يُتخيل لي أنك حين تضع كفك على جسدها تدمى
أصابعك من نغز عظامها البارزة وكأنها مسامير.. مهزلة.. والله مهزلة!
نعم أنا مسعود بن مسعود.. أحب النساء الممثلة.. ممثلة
مثل عذرا وهذا ما فعله ربي بي وفي..

- آه يا عذرا.. جا غرامك غدرا..

حقا رُبّ مسيء مفيد.. فحين كنت بطالا، ظللت سنوات طويلة
أبحث عن وظيفة أو عمل ما بلا جدوى، فاض الوقت بي، وصرت
فائضا على الوقت، كل أيامي أصبحت متشابهة إلا يوم الجمعة، ..
نعم يوم الجمعة، فإنه يدخل إلى قلبي إحساسا مختلفا، وإلى يومياتي
معنى جديدا..

جُمعتي أنا.. جُمعتي لوحدي.. لا تشبه جُمعة أحد.. ولا أحد
يفرض علي جُمعته.. هكذا أنا لا أستحسن هؤلاء الذين هم دوما
مستعدون للإفتاء لحياتك، ولإعطائك الدروس في الإيمان والتوبة
والأخلاق وما إلى ذلك، وكأن الله وضع بين أيديهم مصير ما قبل
وبعد موتك، وسلمهم مفاتيح الجنة دون بقية الخلق، والأفدح أنهم
يعرفون أنك تدرك ما يضمرون من تفاهات، ومن نفاق.. وأنت تعرفهم
خارج لبوس الطاعة تلك.

عباس من هؤلاء، من وجوه الحارة، مهرب سابق، أفصح عن
رغبته للترشح في البرلمان القادم فأطلق لحية شعثاء منذ مدة، قبل
أن يبدأ حملته الانتخابية في المسجد. لعله يراهن عليّ ليثبت لمنتخبيه
قدرته وفعاليته على ترويض نمر مثلي ووضعه صاغرا في قفص. أليس
جميع من هم مثلي مجرد أوراق انتخابية ضائعة مبعثرة في الشوارع..
من يلتقطها يملأ صندوقه ويكون الأجدر بثقة العامة والسلطة معا..

يقترّب مني كل يوم جمعة، قائلاً بلهجة العارف الأمر الناهي
الناطق باسم الملائكة والرسل أجمعين:

- لم أرك اليوم في مسجد الحي يا مسعود؟

مرت الجمعات متاليات.. صبرت كثيراً، ثم ذات جمعة وبينما
هو يقترّب مني ماسحاً على لحيته الشعثاء، وقبل أن ينطق بعبارته: «لم
أرك في صلاة الجمعة يا مسعود...».

سبقته:

- تعرف خويّا عباس.. ما كان لاش تعيي في روحك.. أنا
سبقتك.. أنا نصلي الجمعة يوم الخميس.. يوم الخميس واش الداني..
صافا خويّا عباس؟

منذئذ لم يعد يقترّب مني.. بل لم أعد أشاهده يمر بي وهو يقصد
المسجد كل جمعة ماسحاً على لحيته.

نعم.. الجمعة لي أنا.. الله يعلم أن كل أيامي متشابهة، لا فرح ولا
متعة بها.. هو صاحب الملك العظيم، لن يستكثر فيّ يوماً واحداً، يرتاح
الناس فيه بالطريقة التي تحلو لهم، وأرتاح فيه بالطريقة التي تحلو لي.
الجمعة.. إلا الجمعة وما أدراك ما الجمعة....

إنه يومي أنا بسبعة أيام، بألف شهر.. أنتظره بفارغ الصبر كي
أراقبهن يقصدنه، منهن الهادئات، ومنهن القلقات المسرعات، يدلفن
إلى الباب وكأنهن يتصلن أو يهرين من شيء ما يلاحقهن.. ثم إنني
لست أدري لماذا يخترن يوم الجمعة.

أجلس أمام الحَمَام العام للنساء، حَمَام «سوق لاباستي» الذي
يرجع إلى القرن التاسع عشر، سماه المستعمرون تبركا بانتفاضة سجن
لاباستي الشهيرة، له مدخل مفضض ومزين بالرخام الأصلي.. وله
ساريتان عظيمتان تحيطان بالباب الكبير الخشبي المتصب بأبهة. تليه

الردهة الجميلة، المظلمة إلا من مصباح وحيد خافت يكاد يضيء ليدل على الباب الداخلي. الأرضية منه ملساء من الرخام الأصلي الفاخر أيضاً، تزينها رسومات بالأخضر الغامق والفاتح لحيوانات أسطورية.. حَمَام لا باستي يستقبل النساء في النهار والرجال في الليل، سمعت أن أحد المسؤولين نُصَّب حديثاً أمر بترميمه. إنه لا يحتاج في الحقيقة إلى أي ترميم على الإطلاق، يحتاج فقط إلى صيانة، لكن الترميم أصبح المشروع الواضح الوحيد الذي يدخل به المسؤول لمسؤوليته الجديدة، ثم يخرج منها بعد إقامة طويلة دون أن ينتهي مشروع الترميم ويتم تجديد طلب الميزامية الإضافية له من الميزانية العامة للدولة المستمدة من ريع البترول والغاز، كمشروع لا ينتهي أبداً، بل لا يراد له أن ينتهي، لأنه البقرة الحلوب على الدوام، البقرة التي تسرق حليبها ويبيع وهو لا يزال داخل ضرعها.. لم يعد خفياً على أحد من العامة أن من وراء ذلك إن.. «إن» عملاقة ومتبجحة..

- نعم «إن»..!

لم تعد تلك الـ «إن» خفية على أحد في المدينة، يعرف سكانها ويرددون بهمس مايفعله المسؤولون المهووسون بعمليات الترميم، فكلما عُيِّن مسؤول جديد على رأس مؤسسة ما، حتى يبدأ مفتتحاً اجتماعه الأول بمشروع ترميم، ولا يهم إن سبق ما يُشرَّع لترميمه أن تُشرَّع لترميمه المسؤول الذي سبقه.. لا يهم.

ثم إنهم يقصدون بنايات بعينها، بنايات تاريخية عتيقة جميلة باذخة، فالترميم يعني المال العام المهدور، وتبديل الرخام الأصلي الفاخر بالزليج الرخيص، بحيث يذهب الرخام الأصلي، والرسومات الجميلة، والسواري والتزيينات التاريخية الفاخرة، نحو السوق السوداء، أو مباشرة نحو مشاريع الفيلات والقصور التي يشيدها المسؤولون لأنفسهم

أفتح قليلا النافذة الصغيرة المطلّة على الشارع، وأدخن في هدوء، بينما هن يدلفن أسرابا وفرادى إلى الحمام من الباب الكبير إلى الردهة، واحدة بعد الأخرى، أو يخرجن بوجوه متوردة، ومنهن من تبدو في كامل زيتها، تفاجئ ضوء الشارع فيتراجع، ثم لا شيء يمر

دون أن ألتقطه بحذافيره، هادئا دون أن يتدحرج في قرقة أو يضيع، إلى أن ينتهي بهدوء في قاع الذاكرة..

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة لا يشتكى قصر منها ولا طول تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت كأنه منهل بالراح معلول

هذا ما فعله بي ربي..

وكعادة مساء كل جمعة أعود إلى سكني تاركا مقهاي، عندما تخرج جميع النساء، ويخلو الحمام من زائرائه. بسرعة، أجمع كما اتفق، في حقيبة صغيرة الصابون، والمشط، والفوطة الكبيرة، والمحكة، وألبسة داخلية نظيفة ثم أتوجه متلهفا إلى حمام سوق لاباستي.

الرجال قليل عددهم هنا، لست أدري كيف يستطيع الحمام أن يأوي كل تلك الأعداد الهائلة من النساء في النهار، أين كن يجلسن وكيف؟.. المهم أن رائحتهن، وحناءهن، وأصباغهن، وعطورهن ما تزال تملأ المكان، وهذا شيء خارق الروعة.

أكاد أسمع أصواتهن وأرى حركاتهن، وهن يدلكن أطرافهن، ويمشطن شعورهن المبللة، فيغمضن عيونهن هكذا.. كي لا يؤلمها الصابون، بينما يطوين أفخاذهن تحتهن أو يربعنها أو يمددنها أمامهن، مبسوطة فوق أرضية الحمام الساخنة أو ربما يجلسن القرفصاء وربما منهن من تغتسل واقفة..

ألتفت فجأة لطيف تراءى لي بسرعة، كأن واحدة منهن تمر بي، تعبر المكان عارية إلا من قماش شفاف مبلى يلف خصرها ويلتصق بجسدها، كأني أسمع خطوها.. وصداه. أتحنى لها قليلا عن مدخل الغرفة الساخنة الذي كنت أكاد أغلقه عرضا وطولا.. كأنها تمر، كأنها ترفع وجهها نحوي، تبسم وأرد عليها ابتسامتها بأفضل منها.. كأنها

تختفي كما جاءت. تاركة مرحا في خيالي.

يا لها من سعادة قصوى.. ألمس الزغب الكثيف على صدري..
تستيقظ رجولتي جامحة، أباحت الابتسامة وهي لاتزال تنتشر بسخاء
فوق وجهي. عيناى تسبقاني إلى تفرس الأمكنة المنزوية والضاربة
في العتمة، تحت مصابيح مدورة، خافتة مركزة على السقف وأعلى
الجدران، تكاد تكون مظفاة.

أتقدم حذرا بقدمي الحافيتين بحيث تلتصق بطن القدم مني
فتلامس الأرض الساخنة. أفضل المشي حافيا هنا. لهذا المكان رهبته.
أكاد أن أبدي سخطي على هؤلاء الرجال الذين يدخلون مثل البغال
بنعالهم المطاطية.. أكاد أن أصرخ في وجوههم لأوبخهم.. يا لهم
من أجلاف.. لا حس لديهم ولا ذوق. ألا يفهمون أن النساء اللواتي
اغتسلن هنا منذ ساعات قليلة وأثناء النهار ما زالت طاقتهن، ولمسات
أجسادهن عالقة بكل شيء، وقد تركن روائحهن وأصواتهن اللذيذة في
الجنبات، ترتسم على كل شيء وتركن آثارهن المرهفة على البلاط.
كيف يدوسون كل ذلك هؤلاء البغال؟

- فليذهب المطاط العازل إلى الجحيم.. أيها الأجلاف!!

أعبر الغرفة الساخنة نحو الساخنة جدا، تقابلني المرأة الكبيرة
التي بدأت تفقد صقلها من كثرة الرطوبة وتوارد وجوه النساء والرجال
وأجسادهم عليها، أقف عند باب الحجرة الداخلية الندية، يقابلني
مهرجان من البخار يلعب المصابيح الخافتة، يتراقص فوق كل شيء،
أتقدم بخطى متتدة على البلاط الساخن اللزج، أفتش بعيني العارفتين
عن «جايبة» في الوسط.. لست أدري لماذا تراودني فكرة أنه لا بد
من أن أجملهن وأفتنهن وأشدهم امتلاء ووأشهاهن وأضخمهن عجزا،
وأفخمهن صدرا كانت تجلس هناك بالوسط امام تلك الـ «جايبة»

العميقة قليلا، على طرفيها حنفيتا الماء البارد والساخن يزينها كفان مفتوحان من رخام أبيض ناصع، مخصصان لوضع حاجيات الاغتسال. أقرأ الفاتحة بخشوع، أجلس تاركا نصفي الأسفل ممدا بالأرضية الساخنة، محتكا بها مباشرة، ثم أحرر جسدي، وأسلمه لدفع لا مثيل له، الزغب الأسود ينفر مستقيما على مساحاته.. أبتسم لفكرة تعبرني أتصورني مثل قنفذ يشله الماء. أفتح حنفيتي الماء البارد قليلا والساخن كثيرا. أصبح في بخار كثيف دافئ.. يغطي كل شيء حولي ويعتم الرؤية. تهز أطرافي رعشة قوية لذيدة، ثم تسري في جسدي كله، بلذة لا توأم لها، تستمر لحظات وتعود مرات عديدة متواصلة، أغيب لساعة في صمت لا يكسره سوى صوت الماء السائل، صوت الماء يهمهم بكلمات مبهمة، ستصبح أوضح لو أنا أصخت السمع قليلا.. ربما.. أو ربما هو خيال خصب موزق يفتح على حلم فاتن. أستيقظ على آخر مغتسل يترك القاعة الساخنة، أستيقظ من حلمي الأسود اللذيذ شيئا فشيئا، أرش ماء باردا على وجهي، وصدري وأمسح به رقبتى وأشرب منه قليلا، ثم أغتسل بصابون سخي وأتوضأ، ثم أخرج خفيفا، خفيفا، في انتظار الجمعة.

- هذا مافعله ربي بي.

أخرج من حمام لا باستي وكأن جناحين قد نبتا لي، يواجهني سوق لا باستيل، هادئا على غير عادة النهار، نائما، يعوم في الظلمة إلا من عمال النظافة، يهيثونه بكرم وسخاء لزوار الغد، وللباعة وأصواتهم العالية. الباعة في سوق لا باستي؟ ربما هم نيام الآن، سيعودون غدا باكرا ينادون على بضائعهم بلا ملل، بل بكثير من التفنن والغبطة، أصواتهم أصبحت أليفة لي، كيف لا وأنا الذي كبرت على بعد أمتار منه. ينادون على السمك، وعلى الخضراوات والفواكه، وعلى الخبز،

وعلى حمالات الأثداء وعلى النعناع وأشياء أخرى، إلا أنهم لا يفصحون أبدا عن الثمن.

أحد قدامى مهنة بائعي السمك، وهو صياد وبحار قديم، يعرفه الجميع ويحبون مرحه، يطلقون عليه لقب «الحوت». أعرفه منذ صغري لم يتغير أبدا، ربما طبيعته المرحية حالت بينه وبين الهرم والمرض والعجز، ما زال صوته يعلو على بقية أصوات البائعين، وما زالت طريقته المرحية في جلب الزبائن هي الأذكى، ولم تتغير على الرغم من تراكم السنين وكما تقول أمي: «العريف ما ينسى هز كتافو».

يعرف «الحوت» جميع رواد السوق رجاله ونساءه، يتفنن في اللغة، يموسق نداءاته ويثريها بالأمثال الشعبية، وكثيرا ما يدخل جملا قصيرة من أغاني الشيخة الريميتي والشيخة الجنية والشاب خالد وغيرهم من نجوم الطرب المحلي، فلكي يجذب الزبائن ويطمئن المنتظرين أمام بضاعته كي لا يلتفت أحدهم إلى غير واجهته يرفع صوته يغني كما اتفق:

- أنت قدامي وأنا موراك.. آألزين آأللي هناك.

مرت بقربه امرأة جميلة دون أن تنتبه له، ربما ساءه أن تمر دون أن تشتري سمكا من عنده فصاح، وهو يلوح بسمكة في اتجاهها.

- عندي هنا لاسيران.. لاسيران الحي.. آيا آيا.

كأنها فهمت ما يرمي إليه، وكأنها حورية البحر التي يقصدها، شزرتة ثم واصلت سيرها بزهو، بينما توقفت عند بضاعته زبونة أخرى سمينة جدا، سألتها ضاحكة:

- بشحال راك تبيع لا سيران، خويا الحوت؟؟

- باطل ورخيص.. شحال خصك نوزنلك.. كيلو.. زوج..

قنطار؟؟

وحين ابتعدت وهي تمسح العرق بيد وتدس بالأخرى بضاعته في سلتها وعلى وجهها علامات الرضى، صاح وهو يغمز للإسكافي الذي بجانبه، يقبض على المسامير الصغيرة اللامعة بين شفتيه قبل أن يغرزها في الحذاء الفتوح بين يديه:

- آيا لبالين السمين.. لا بالين الحي.. أيوا أيوا خويا العزيز.
يأتي الناس سوق لباستيل، من كل حذب و صوب فيمتلئ على آخره ساعات الصباح خاصة وبقيّة النهار. يسير الناس فيه بالكاد في اتجاهين ضيقين اثنين لا ثالث لهما سوى الهواء، أما في الليل فإنه يبدو وكأنه ملعب خيل.

لست أدري كيف تضخمت في دماغي فكرة جهنمية، كانت كل يوم تراودني وتدور في ملعب رأسي، تكبر مثل كرة الثلج..
- أووه في الحقيقة لم أعد أطيق أن تذهب أمي وأختي إلى الحمام الخارجي.

كل يوم جمعة بعد الغذاء، تخرجران حقيبة ضخمة بينما تغطي أمي رأسها لافة شعرها المطلي بالحناء منذ البارحة ترتدي حائكهها الأبيض، ثم تخرجران بخطى مسرعة ولا ترجعان إلا قبيل الغروب..
تعودان وهما في غاية السعادة ولكنني لم أعد أحتمل، فقلت لهما ذات صباح جمعة بعد تردد:

- ألا يكفي حمام البيت لكي تغتسلا براحة.. ثم لم كل هذا الشظف، اليوم كله ضائع بلا فائدة.

يبدو أن أمي تفاجأت من كلامي، لكنها حدقت مباشرة في عيني، بظل ابتسامة ساخرة قائلة:

- وعلاش.. حلال عليك حرام علينا، يا مسعود وليدي؟

باب الاشتياق وما جاوره

لا أحد.. إنه الليل.. يحرس نجومه (ربيعه)

- توحشتك يا اما.

كم أشتاق إليها أمي.. آه أمي.. لم أرها منذ فترة طويلة منذ أتيت إلى هنا. كلما تذكرتها أصير طفلا في جسد رجل مكتمل الذكورة، ويصعد الدمع من بثر عميق مجهول يترقرق في كياني لا أعرفه، يهجم حارا يحرق جفوني.

لم أرها منذ أن جئت وسلمتني الحاجة عذرا مفاتيح فيلتها وتجولت بي نادي الصنوبر لتعرفني بالمكان.. ليت أمي تراه..

الوقت منذئذ يبدو لي وكأنه يمشي حاملا السلم بالعرض، لا أحب أن أتابعه كي لا يتعبني.. ثم أنا لا أحمل ساعة معي ليست من عاداتي. لكن الحق يقال فإن الليل يشكل المفصل الأساسي والوحيد في ساعاتي الأربع والعشرين.. الليل هو الوقت بالنسبة لي.

في الليل تستيقظ جميع حواسي، وتصبح أقوى، وتتضاعف طاقتي، ولأن الفيئات القريبة من هنا قصيرة، وقراميدها مائلة، فإن النجوم تبدو واضحة وقريبة، أما في الشتاء فإن الليل هنا يشبه جنرا لا مهزوما خلع نجومه.

لا خوف هنا على شيء من شيء، ولا على أحد من أحد، يبدو لي أحيانا أن الحاجة عذرا لم تكن تبحث عمن يحرس لها الفيلا، أرادت فقط أن تساهم في انتشار بائس مثلي من مخالف البطالة، ربما أشفقت على حالي وحال أمي، أو ربما أعجبت بوسامتي ومن يدري، وكم أتمنى أن يكون وهمي صحيحا. أما ضرورة أن أحرس الفيلا فأمر لي فيه شك. أعتقد أننا معا، الفيلا وأنا وكل شيء جامد ومتحرك هنا، تحت رحمة الحراسة المشددة، ثم ليس هناك ما يقلق من هذه الناحية، أشعر أن المنطقة كلها محروسة كما ما لم تحرس منطقة قبلها ومثلها، أبوابها مقفلة أمام الغرباء ولا يمكنك الدخول أو أن تحشر أنفك في ملتمتر واحد من فضائها الا إذا تعرف عليك حراس المدخل الرئيسي المنعرج على شكل حرف «س» كثير المقالب، ولن تمر إلا إذا مسحوا وجهك بعيونهم، وتداولوا أوراقك الشخصية بينهم، وتناقشوا في أمرك، وأمر سيارتك، إن كانت لك سيارة. إلا إذا علموا أصلك وفصلك، وتاريخ دخولك العاصمة وتاريخ ختانك وإلى أين أنت ذاهب، وعند من، وكم ستظل، ومتى ستترك، وهل ستبيت، واين. وإذا ما تجاوزت الخط وتركوك تدخل فاذهب وتجول حيث شئت من الهوى، فإنهم بتحركاتك دارون، وإلا فإنهم سيطلبون منك العودة وقد رسموا لك علامة نصف دورة، وربما يتصلون بالشخصية المهمة التي أنت قاصدها، فتسمعها من خلال الطالكي والكي المرفوع صوته على آخره، تقول بعبارات كأنها مستهزئة ساخرة:

- آه جاي عندي جاي عندي.. نسيت أن أخبركم وأترك خبرا عنكم بارك الله فيك خويا.

ثم يفسخون لك الطريق، وبإشارة تختفي التتوءات المسمارية المغروزة في الإسفلت بعد أن تدخل مختفية في عمق الأرض، وتنزل

السلاسل المعلقة في الجهتين، وتصد الحواجز الفسفورية، فتمضي في طريقك نحو الداخل، وكأنك المحظوظ الوحيد على الأرض، أو كأنك آدم راجع إلى الجنة بعد أن غفر الله لك وعفا عن خطئك الفادح بقضم التفاحة.

في البداية كنت أتساءل أحياناً.. بالله ما الذي يحرسونه هنا.. لا شيء يستحق كل هذه الحراسة المدججة.. لا شيء له قيمة سوى عذرا، وفيللة عذرا.

أحياناً أشعر أنني أنا الوحيد من يحظى بقيمة في هذا العالم المغلق، على الأقل أحاول أن أرضي امرأة ملكت علي نفسي ونفسي، أنتظرها مثل فرح عارم يملك علي كينونتي، كم جميل أن تعمل شيئاً تحبه.. أنا أحب أن أنتظر عذراي أحب أن أنتظرها.

أشعر أن الناس هنا على الرغم مما يبدو عليهم من بدخ وخروج عن المألوف، إلا أن ملامحهم تبدو مكشوفة قلقة، أحياناً ألمح بعضهم يتجولون في الليل وحيدين، أو اثنين اثنين.

اقتربت من شخصين ذات ليلة، تعرفت عليهما، إنهما وزيران. كانا يتمشيان في الطريق الضيق خافت النور، ذاك الذي يفصل البنايات الصغيرة المرصوفة بعناية. لم يتبها لوجودي. لست ذا قيمة بالنسبة لهما، لم يلتفتا إلي وكأنني ظل أو شبح، كدت أن أذهب في اتجاههما وأمد لهما يدي مصافحاً ثم أخبرهما أنني أقيم هنا أيضاً في فيلة الحاجة عذرا، ولكن الفكرة دارت معوجة في جمجمة رأسي، ثم اختفت نهائياً، حتى أنني لمت نفسي عليها.

- احشم شوية يا مسعود.. من أنت يا مسعود حتى تتجراً وتقتحم خلوتهما، وتقاطع حديثهما الذي يبدو غاية في الأهمية والسرية من طريقة إطرافهما لرأسيهما من ثقل التفكير. إنهما بلا شك يبحثان عن

حلول لمشاكل البلاد التي لا تنقص، بل هي في تزايد مهول، أما أنت يا مسعود فلا شيء، أنت مجرد صفر على الشمال، أنت غريب ودخيل على العاصمة وعلى هذا العالم الذي لا تشبهه ولا يشبهك.

من طول إقامتهم هنا يعرفون بعضهم بعضا ويتحسسون بعضهم بعضا بقرون استشعار نبتت لهم للضرورة، يحفظون ملامح وأصوات وظلال وروائح بعضهم البعض. طبيعي فوجودهم هنا طويل وممتد في الماضي والحاضر والآتي. أما أنت فلا أحد يعرفك، حتى الحاجة عذرا عندما تحل لا تنظر إليك وتبادللك بالكاد السلام.

شوف يا مسعود... من رمية عين، وعن بعد أربع فيلات ومسيح، يدرك أحدهم أن المار من هناك هو وزير الزراعة الحالي، الذي كان وزيرا للصحة قبل ان يترك وزارة الصيد، أو أن ذاك الذي تلمع صلته تحت المصباح هناك، وهو يفتح باب سيارته أو يغلقها، إنما هو وزير التربية والتعليم، الذي عين في مكان وزير الزراعة، الذي عين بدوره على رأس وزارة الاعلام، بعد أن عاد وزير الإعلام الى وزارة العدل التي ظل على رأسها طويلا دون أن تنجب هذه البلاد واحدا مثله. وأن وزير التضامن الاجتماعي، صعب عليه ترك وزارة المالية، ويقال إنه بكى لأنه طال بها حتى ربي عليها الألفة والكبد، ثم ما لبث أن عين على رأس وزارة السياحة، لأن وزير السياحة في بلد يستطيع أن يعيش شعبه ملكا في بحبوحة من السياحة وحدها لو وجدت ولكنها لا توجد ولا يراود لها أن توجد.. ثم لماذا توجد لا أحد يحتاج إلى التيمم ما دام الماء حاضرا، الماء هو النفط الأسود وريعه الغزير.. المهم الكل يتشابه، أن تكون وزيرا للسياحة ليس بالضرورة أن تفهم في أمور السياحة والاستراتيجيات العالمية للسياحة.. لا يهم هنا أن تكون وزيرا للزراعة أو للتعليم أو المبادلات التجارية فاللغة نفسها

يمكنك أن تستعملها والمهم أن يرضى عنك المولى الحاكم الأوحد
مدّ الله في عمره وبارك. وتظل عند حسن ظنه وتظل من صحابته
الأتقياء به، لا تتنفس خارج القبة التي أنت فيها حتى لا تضع حصتك
من الحلوى.... هكذا لن يخرجك من جنته.

- شوف يا مسعود.. العدل موجود.. من قال إن لا عدل في
البلاد فقد كذب ومن قال بغياب التداول على السلطة فقد فتن..
نعم، كما رأيت.. إنهم يتداولون بينهم على الحكم وعلى السلطة
بعدل بينهم لا للدخلاء من أبناء الغاشي، لا بد من تضيق الدائرة،
وإحكام غلقها في وجه أي تدخل خارجي من أبناء الغاشي الراشي،
الخوف على الربيع من كثرة التوزيع أو كما يقول المثل الشعبي:
«فرّق البحرْ يولي سواقي».

- اغلق فمك يا مسعود.. ما يدخلو لا ذبان ولا دود..

باب مفاتيح رضوان.. والرضوان عليهم

ما هذا.. أَكُلُّ هذا الصنوبر الذي يحيط بك وتشعر بثقل الغربة؟
الغربة ثقيلة هنا الوحدة أشد ثقلا في هذه البقعة الفردوسية
المغلقة المفصولة عنها في باقي البلاد، ربما لأنني لم أعود على
الفردوس بعد، ثم لأن الحاجة عذرا لا تزور فيللتها كل يوم.
أشعر بالوحدة والضيق لولا رضوان، رضوان أحد الحراس
المهمين في المدخل الرئيسي الرسمي، وله جراء عمله ذلك أهمية
وشأن كبيران. فمنذ أن علم وبالصدف أننا من أبناء منطقة واحدة، لم
يتوقف عن التقرب مني والحديث إلي وإبداء الكثير من المودة لي..
يحب رضوان التطرق معي إلى كل ما يربطه بطفولته وشبابه واكتشفنا
أن لنا أصدقاء وأقارب مشتركين بين عائلتين.. الأمر الذي قرب كثيرا
ما بيننا.

صار رضوان لا يمر يوم دون أن يزورني.. أفهم شعوره فهو
غريب مثلي وعلى الرغم من سمعته الممتازة في عمله ومكانته بين
الحراس، إلا أنني أحسست أنه يعاملني مثل قريب من منطقته من حيه،
ومن عائلته التي لم ير أفرادها منذ وقت ليس بالقريب، نتيجة طبيعة

عمله الحساسة، فالحراسة هنا لها شروطها الدقيقة والصعبة تأخذ وقته، نهاره وليله فلا يجد نصيبا منه على الرغم من حنيه إلى مدينته وإلى حيه وإلى أسرته.

رضوان يعمل هنا منذ سنوات عدة، علمت لاحقا أنه كان رياضيا متميزا، وكان حلمه أن يصبح بطلا عالميا في الملاكمة. يبدو أن حلمه تبخر بعد أن أغلقت في البداية أمام وجهه جميع الأبواب، مثلي.. ليجد نفسه حارسا بخمس نجوم مثلي.. بالكاد.

على كل حال أحسده على بنيتة القوية، فمن حسن حظه فإن لجسمه علامات الرياضي، منتصبا، متينا، متماسك العضلات.

يأتي إلي رضوان، فنجلس عند مدخل فيلاّ الحاجة عذرا، نتجاذب أطراف الحديث، ندخن ونحتسي فناجين القهوة، يسألني عن أماكن عدة علّمت طفولته، ووشمتها بذكريات جميلة. يسأل عن مقاهيها القديمة والمستجدة، وأزقتها وأحيائها وشوارعها.

يبدو أن شوق رضوان وحنيه إلى أهله في حالة اشتعال دائمة، وقد وجد في مجيئي وإقامتي هنا راحة نفسية بحيث أنني أملأ الفراغ الذي يتركه بعده عن عائلته.. اقترحت عليه في بداية معرفتي به الذهاب خصيصا لزيارة أهله وأردفت بأن المواصلات سهلة وسريعة ومريحة، وما عليه إلا أن يقرر، لكنني الآن، مثله، وبعد مضي وقت ليس باليسير لا أستطيع أن أتقل لرؤية أمي وزيارتها على الرغم من المواصلات السهلة والسريعة والمريحة..

أتأكد يوما بعد يوم أن الالتحاق بالعاصمة بمثابة الدوران في طاحونة فارغة لا تنتهي إلا بانتهاء العمر، وأفهم لماذا لم تعد الحاجة عذرا يوما إلى الصحراء.

- الله ينعل هاذ الخدمة.. ما عندكش الوقت حتى باش تحك

راسك. شوف مسعود خويا اللي خبزه في لاكاييطال، يقعد قاع عمره فيها..

رضوان يرتاح لي، ويستأنس بوجودي، وأشعر أنه يثق بي. تعددت زياراته لي، حتى أن كلما حلت فترة من راحته التي لا تتعدى نصف الساعة، لا ينسى أن يمر بي، ويسلم علي ثم يمضي. إنه ابن مدينتي.. أشعر أننا غريبان فعلا.

وكل غريب للغريب حبيب.

- وشكون اللي مشي غريب في العاصمة يا مسعود خويا..
قال لي مرة ضاحكا بمرارة..
معه حق.. العاصمة بلاد الغرباء.

لم يعد رضوان يسألني ويستمع إلي مثلما كان يفعل في بداية تعرفنا وكأنه كان يمتحنني، فقد انطلق لسانه واندلق، ولم يعد يرتاب مني، بل يخفض الصوت أحيانا حين يريد أن يفضي إلي بالأسرار الكبيرة.. أحسست كأنه يبحث عن توازن فقداه منذ وقت طويل فوجده فيّ، أنا الأخ الذي هبط عليه فجأة من حيث لا يدري.

تفاجأت في الهدوء المغشوش لدى رضوان، تفاجأت فيه وفي نظرتة الغاضبة الساخرة إلى العالم، ثم إنه يستعمل بكثرة الكلمات النابية التي أتى بها من مدينتنا.. ومنها أخرى جديدة لا تستعصي على الفهم.. يا إلهي لم أكن أعرف أنه متدمر إلى هاته الدرجة، ممتلئ القلب حتى التمام بهذه الطريقة.

يأتي رضوان في أوقات فراغه القصيرة، يضع جهاز اتصال الطالكي - والكي الذي لا يفارقه على الطاولة الصغيرة، ويخرج علبة سجائره، ثم يجلس فارقا بين رجله كأنه عسكري في حالة تأهب حتى في وقت الراحة، أو ملاكم في استراحة بين جولتين، في انتظار

صفارة الحكم..

حين قدم لي سيجارة لأول مرة، رددته بأدب، وقد وضعت يدي على صدري للدلالة على الشكر والاعتذار، وأخبرته أنني سبق وأن قررت ترك التدخين منذ ستة أشهر ولا أنوي العودة إليه، إلا أنه ودون أن ينظر الي، وكأنه لم يستمع إلى شرحي، ظلت يده ممدودة نحوي بالسيجارة، يقربها أكثر من وجهي وهو يقول بصوته الجهوري بنبرة استنكار وسخرية:

- هاك يارجل.. اكمي اكمي.. وخليها تكولي.. واش غادي تدي من هاذ الدنيا..

كنت أنظر بشغف إلى السيجارة الممدودة إلي، كانت رائحة التبغ الشهية تنطلق الى خياشيمي، وكأنها تتسرب إلى خلايا دماغي.. كم هي شهية رائحة التبغ في هذا المكان المهوء الساكن، خاصة بعد شوق ستة أشهر. التقطتها من بين أصابعه شممتها ثم بدأت أنظر إليها بتمعن، أيقظتني ضحكة رضوان وهو يمد لي شعلة نار القداحة:

- فقت لك فقت لك.. كنت تستنى غير فيها يا واحد الحلوف!! ثم انطلقت منه ضحكة أخرى مجلجلة بينما كنت أجذب نفسا عميقا وأنا ألعن فطام الستة أشهر.

جلساتنا ليست طويلة، ولكنها مكثفة، بين كلمة وأخرى، ينعق جهاز الاتصال الطالكي-والكي. أغلب الوقت لا يرد رضوان على النداءات بل يكتفي بإلقاء نظرة من جانبي عينه عليه، على الجزء المشتعل من الجهاز، يتردد الحرف الأخير من الجملة المعلقة في فمه قليلا، ثم ينهي كلامه دون أن يقطع ذلك عليه حبل أفكاره.

الحقيقة أن رضوان أصبح مؤنسا لوحدي، ربما هي دعوات أُمي التي كانت دائما تتأسف لأنها لم تنجب لي أخا يسندني في الأوقات

العصية كما كانت تقول دائما.

كأن رضوان أخى وملاذى فى هذه المدينة المغلقة الغربية، إنه يكبرنى بسنوات، ولأن الحياة لم تكن رحيمة به كثيرا، تعلم كيف ينتصر فى العراك الذى فرض عليه مبكرا، تعلم التجلد والقوة، وتعلم الصبر، وتعلم كيف يكتشف معادن الناس بخفة وذكاء. قضى نصف حياته خلف أبواب الحراسة. من حراسة باب مدرسة، إلى حراسة بنك، الى حراسة سجن، إلى أن وصل إلى ما هو عليه، يحرس كبار القوم، يضعون بين يديه طمأنيتهم، إن تعرفوا أو لبسوا، أو قاموا أو ناموا..

الحراسة أصبحت طبيعته الثانية أو قل الأولى. ذاكرته العجيبة تلتقط أدق التفاصيل وترتبها.. كل شيء يتململ يدركه بحواسه كلها، ويدرك أيضاً مزاج المارين به من ملامحهم ولفاتهم ومن حركاتهم ووسكناتهم، حتى وإن ارتدوا أغمق النظارات السوداء وأوسعها تغطي نصف وجوههم.

رضوان المسؤول الأول على الباب الخارجى الرسمى الكبير لمدينة الأحلام هذه، التى لا مدخل لها سواء وليس لها معبر ولا ممر آخر غيره. من يدخل إلى الجنة عليه برضوان.

يقف رضوان على رأس مجموعة كبيرة من الحراس المؤقتين منهم والدائمين، والذين هم فى إجراء دورة تدريب، جميعهم يتبعون حركاته ويتظرون أوامره، يعرف رتب المارين به وتراتيبهم، يعرف سيارات كل وزير، ومسؤول مهم، وأقل أهمية على الرغم من تشابه ألوانها الغامقة، ويعرف جنسية جميع الأعلام التى تتقدم السيارات الدبلوماسية حين تدخل أو تخرج.

يختبئ كبار القوم خلف زجاج السيارات الرسمية الغامق، يجلس

الواحد منهم في مكانه المخصص له، بالمقعد الخلفي على اليمين من سائق السيارة الرسمية الفخمة، مباشرة خلف حارسه الخاص المسلح الجالس الواقف متوثباً، يدير عينيه بسرعة في محجريهما في كل الاتجاهات، وكأنهما غرابان يتزلقان على صفحة جليد. وبعد تجاوز الباب الكبير والسيارات، يضع نظارته الشمسية هو أيضاً، يده اليمنى على حزام سلاحه المعلق بإحكام بيسار خاصرته، بينما يضع يده اليسرى على مقبض الباب بالمقعد الأمامي توجساً لكل طارئ، ومقاروماً للسرعة الفائقة التي ينطلق بها الموكب مطلقاً زماراته إنذاراً متعاليًا، ومحتقراً لسيارات العامة، أمراً لها بالابتعاد عن طريق السيد المهم.

رضوان يعرفهم واحداً واحداً وواحدة واحدة.. يعرف أسرارهم وأسرارهن الخاصة جداً، ماذا يأكلون وماذا يشربون، ومتى ينامون، ومتى وأين يسهرون، ومن يأتي لزيارتهم خلف أستار الليل، ومن يخرج من عندهم قبل انبلاج الصبح، وحيث يقضي كل واحد منهم ليلته خارج الأسوار، أو داخلها.. ويعرف عدد الكراسي والطاولات والأمكنة المهيأة لكل واحد في المطاعم الباذخة الحاملة القابعة أمام البحر خلف الفيئات، يأتيها كل ما تحتاج إليه من طعام وشراب ووسائل الترفيه جاهزاً من الخارج بالعملة الصعبة. يعرف رضوان حتى أنواع الموسيقى التي يطلبونها في الأماكن الخاصة بهم، ويقول إن أغلبهم لا ذوق لديهم، ولا يهمهم سماع شيء سوى الحديث عن الصفقات والمقايضات والرشاوى والعمليات، ويقول إنهم عادة ما يبلغون حالة مفرطة في السكر وتكثر حالاته خاصة كلما بدأ الحديث عن اقتراب تجديد حكومي مرتقب، وهو ما لم يحدث أبداً فنفس الوجوه باقية منذ أمد إلى أمد..

كأنما رضوان كان يبحث عن واحد مثلي، كأنما تنفس الصعداء حين وجدني أخيراً، أنا الغريب ابن مدينته التي لم يرها منذ زمن، أنا صورته الأخرى المشحونة بحنينه إلى أهله وطفولته وأيامه البريئة بها، أضفى صورتها علي وأحاطها بإطار وجهي، أنا الغريب الوحيد المعزول في هذا العالم الذي لا أعرفه، بينما هو يفقه تفاصيله، أنا الوجه الآخر للعملة..

نعم حظيت بثقة رضوان، تأكدت أنه اطمأن إلي بدون حدود وكأنني أخ له، حين تجاوز الحواجز ليفضي لي بسر علاقته بزوجة مسؤول مهم، ويسرد حكايته بمتعة، ثم بمرارة، ثم بغضب، ثم بندم، ثم بسخرية.

جاء رضوان ذلك المساء. وكأنه متعب أو به قلق ما، كنا نتناول القهوة وندخن السجائر، شربنا قهوتنا معا في الحديقة التي تحيط بفيللاً الحاجة عذرا وإذا به يقول:

- أتعرف مسعود خويا؟

-

- أكرههم هؤلاء أكرههم جميعا.. السراق أبناء السراق.

تجمد الدم في عروقي، وانعقد لساني، إلا انه استمر في الكلام الذي يشبه الهذيان..

- لو أنني فقط أستطيع قلب كل شيء.. هؤلاء السفلة، أن أطلق عليهم قبلة ذرية.. كم أتمنى أن أصفهم جميعا.. مللت من الكذب والنفاق.. أنت مسعود خويا قلبك صاف لا تعرف هذا العالم.. أنا رضوان خوك.. نعرفو بزاف..

منذ عشرات السنين أقربهم.. وكل سنة أفقد الثقة بهم وتشتد كراهيتي لهم وحقدي عليهم، تضحكني تصريحاتهم كل يوم في

الجرائد والتلفزيون ووسائل الدعاية المختلفة الأخرى، يتبحجون إنهم في خدمة الشعب، واش من شعب.. وعلاش هما يعرفوه؟؟ الشعب الذي يتحدثون باسمه وينفخون أوداجهم كذبا ورياء ويدعون أنهم يرعون مصالحه.. هل يعرفونه، وهل يعرفون كيف يعيش..؟! والله يا خويا مسعود.. هم لا يسهرون سوى على مصالحهم ومصالح أولادهم وذويهم.. لا يهمهم سوى جمع المال والعقار الذي يستفيدون منه في البلد وفي خارج البلد، وتسمين حساباتهم البنكية بالخارج، وضمان مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وأحفادهم بالمال العام..

سكت قليلا احتسى من فنجانه الشراب الأسود الذي برد ثم

واصل:

- والله يا خويا مسعود.. يا دين الرب.. لو كان يجي اليوم اللي نقدر نقلب الطنجرة على ريسانهم أولاد القحبة.

بدأ قلبي يشتد نبضه، خفت فعلا من أن يسمعنا أحد.. بدأت ألتفت يمينا ويسارا.. سيكون محزنا أن أجد نفسي في وضع لا أحسد عليه.

دار بمخيلتي سيناريو سريع وحزين، بطلاه الرئيسيان بلا منازع أنا ورضوان.. هو بمصير مجهول لن يعلمه غير الله، وأنا سأبدأ بدور ثانوي صغير مطرود خائب عائد إلى شقتنا البئيسة، لا صوت يعلو بها على آلة الخياطة تجلس إليها أمي لكسب قوت يومنا.

والحاجة عذرا؟! كيف ستكون ظنون الحاجة عذرا بي، ستقول حتما إنها «أكرمت اللثيم فتمردا».. وسيكون معها الحق.. أنا لا أريد تمردا ما أنا إلا إنسان مسالم أبحث عن العيش بسلام، وأظل أدعو للحاجة عذرا لأنها أكرمتني إذ منحتني هذه الفرصة في العيش بعرفي بدل الدوران في الفراغ.

ما لبثت أن أحسست بالخزي.. فرق صريح بيني وبين رضوان.. رغم سؤدده لم ينس من أين جاء، ويقول رأيته وموقفه بصراحة، شجاع وأصيل، أما أنا فمنافق حقير أخشى ضياع امتياز حارس بائس.. احتقرت نفسي بينما تعظم رضوان في عيني.. حاولت أن لا أكون قاسيا مع نفسي.. فتحت قوسا وأضفت (رضوان يعرف خفايا هذا العالم الذي أجهله، ميزانه دقيق وحساس أما أنا فلا أرى إلا واجهة ما يراه هو بعين مجردة يتلاطم في الداخل) ثم أغلقت القوس المريح يخيفني رضوان حين يصرح على حين غرة بأشياء خطيرة كهذه.. أحيانا يلعب بي الظن فأعود وأشكك في ثقته بي من جديد، وأرجع لأقول ربما هو بالأحرى يريد أن يمتحنني أكثر، أن يكشف دواخلي، أنا الفقير الغريب الآتي إلى هذا عالم المخملي المغلق، المليء بالأسرار والأشياء الممنوعة على العامة من الناس مثلي، لعله يريد أن يعرف رد فعلي فجأة وما هي وجهة نظري في ما يجري في البلد. أو ربما هو يريد أن يعلم هل أنا جاسوس مدسوس من جهة عدوة خارجية ترتب مؤامرة كونية على وطننا السعيد، البلد النائم في العسل. أو ربما أن الحاجة عذرا كلفته أن يفيدها بمعلومات إضافية عني..

بعد هدأة الوسواس، وعودة صفاء الذهن، ومرور الزمن، وإصرار رضوان على مفاجأتي كل مرة بفصل جديد من تدمره، اقتنعت بعد مدة أن رضوان غاضب فعلا، فلم أعد أشك في صدق ما يقول، ولم أعد أتفاجأ حين يعلن كل مرة كراهيته وحنقه على جميع الشخصيات المهمة التي يحرسها ليل نهار، ويحرص على سلامتها وسلامة أسرها ومن معها.. اقتربت من عالم رضوان ففهمت تناقضه وثورته على نفسه وعلى غيره.

يتكلم رضوان فيحرك كل أجزاء وجهه الكبير، بحنكين متفتحين

تتماوج منه الحواجب والعينان والأوداج، شفتاه الغليظتان تذهبان في كل اتجاه، وحين يضحك ونادرا ما يفعل فإن أسنانه البيضاء الكبيرة تتعري نهائيا، وتترك سنه الأماميتين النافرتين تلمعان بحرية في الضوء. فاجأني رضوان هذا المساء قائلا:

- خليها تدخل المسكينة في الكراج.

قالها وهو يشير برأسه فاستدرت، فإذا بقطة حامل تدور حولنا، تردد في الاقتراب منا، وقد بدا عليها التعب من حملها المتقدم، وكأنها على وشك الوضع.

كيف لهذا الرجل الذي لا يسير الا مسلحا وغاضبا ومتلفتا وناقما ومتوعدا، أن يرق قلبه لقطة ضائعة على وشك الوضع. حاولت أن أقهقه إلا أن ملامحه ظلت جادة عيناه ثابتان يخترقان بؤبؤي عيني، وكأن ما قاله أمر لا بد أن يطاع.. لم أتردد في إسماعه صوتي وأنا أحول نظري بينه وبين القطة:

- لازم لازم عندك الصبح رضوان خويا.

قلت له وأنا أحاول النهوض لفتح باب الكراج قليلا، إلا أنه أردف على وقع شبح ابتسامة ظللت محياه:

- بارك الله فيك خويا مسعود.. هاذوك اللي يصح فيهم الخير، أما بنو آدم نكارين مكارين الله يمحقهم.

رن جهاز الطاكي- والكي الموضوع فوق الطاولة قبالة، يرد رضوان بصوت فيه نبرة سلطة، فهمت أن جماعته يسألونه هل يسمحون بالدخول لسيارة تسوقها امرأة لم يعرفوها من قبل، ثم دار حديث مقتضب بينه وبين محدثه.

- واش نوع ورقم السيارة

-

- عند مَنْ جَاءَ؟؟؟

.....

- صابغة شعرها طاكسي؟؟

.....

- إيه نعرفها خلي الهم تفوت.

.....

- ماتنساش تسألها شحال غادي تقعد.. اسمعت؟؟!!

.....

وقف فجأة منتصبا يعدل من معطفه، دس مسدسه وجهاز الطالكي- والكي، ربت على كتفي بأخوة ثم ذهب.

رافقته حتى المدخل البراني للحديقة.. تنفست عميقا، بينما جيش من المشاعر المتضاربة تتلاطم داخلي، ودوخة خفيفة تتابني.

مستندا إلى دفة الباب أنظر إلى القطة مليا كانت بدورها تنظر إلي وكأنها خائفة.. رق قلبي.. ذهبت أجلب لها طعاما وفراشا.

يدو أن رضوان لا يعرف فقط البشر في هذه الجنة المغلقة بل أيضاً أحوال حيواناتها.. غريب وقريب ومرهف ومخيف رضوان هذا.. بصّح فحل بن فحل.. ولد بلادي وحومتي.

- ياه.. لو كان برك نقدر نفرغلو اللي في قلبي!!

منذ ان التقينا وفي خاطري رغبة واحدة.. أتوق إلى الحديث معه عن الحاجة عذرا.. كل مرة أحاول أن أبدأ الكلام فيرجع الهواء إلى صدري وأطبق شفتي واصمت.

كيف يمكنني أن أتعلم منه طريقته العفوية الشجاعة، يخبرني

بغرامياته دون أي حرج، وكأن الأمر لا يستحق أدنى تردد، لكن كلما اقتربنا من الموضوع الذي يغريني بالسماع والكلام فيه إلا وغير اتجاهه. لماذا يتهرب رضوان من الحديث عن الحاجة عذرا، لماذا؟ هل لأن قلبه ممتلئ حتى التمام بما رآه ويراها وسيراه في مهمته الصعبة الغريبة هذه.. أم أنه لا يريد أن يفتح معي موضوعا يعتبره حساسا.

أحتاج إلى الكلام، ضاق قلبي بسري، قلبي الممتلئ حتى التمام بها، أطمع في فك أسرارها، وفك حصارها لي، بهذا التمتع والتجاهل لي، وبصمتها الذي يمنني من الاقتراب منها ومن عالمها.

أين أجد القدرة على مصارحة رضوان بانجذابي القوي لهذه المرأة، لكنني أجدني أتردد، ثم أنثني لأنني لا أضمن عواقبي من رد فعله المجهول..

حقاً لست أدري، هل تراه سيضحك ملء فيه ساخرا مني، أنا الواقع في غرام امرأة تكبرني، بينما يتزاحم من هم في سني وأكثر في علاقات مع فتيات غضات غريرات، أم أنه سيفهمني وسيطيب خاطري، وسيخفف ثقل صدري مما يحمله قلبي من ضياع في غربتي.. ليس رضوان ابن مدينتي وكأن بيننا قرابة دم، ألم يشعر يوما بما أشعر به من وحدة وغربة!!

أمنّي النفس أنني سأفعل في المرة القادمة، سأتشجع وأسأله عنها.. على هذا الضباب من حولي أن ينقشع وبسرعة، علي أن أعرف رأسي من رجلي... آه يا قلبي.. يامجنون عذرا.

متى يشتفي منك الفؤاد المَعْدَبُ وَسَهْمُ المنايا من وصالِكَ أَقْرَبُ
فَبُعْدٌ وَوَجْدٌ واشتياقٌ وَرَجْفَةٌ فلا أَنْتِ تُدْنِينِي ولا أَنَا أَهْرَبُ
فَلَوْ كان لي قلبانِ عَشْتُ بِواحدٍ وَأَفْرَدْتُ قلباً في هوائِكَ يُعَذِّبُ

طاح الليل واشتعلت الأضواء الزاهية في كل مكان، لن أدخل هذه المرة لأنام.. ماذا لو ذهبت لاكتشاف ما يحدث في هذه الجنة مترامية الأطراف التي يملك مفاتيحها رضوان ابن مدينتي، جنة سكانها رضوان الله عليهم.

سأذهب في رحلة اكتشاف عالم ألف ليلة وليلة كما وصفه رضوان.. معه حق:

- روح شلل عينيك شوية مسعود خويا.

.. معه كل الحق.. علي أن لا أظل غارقا هنا.. أذهب في رحلة اكتشاف.. ربما سأشعر بأمان بعد معرفة ما يجري حولي.

باب البذخ وما جيرانه

للصمت اللئيم أيضا . . ذاكرة!!

تستيقظ الحاجة عذرا باكرا تتململ في فراشها تتنهد.

- مسعود.. مسعود!!!

تدرك ما به.. نعم تدرك ما به.. وكيف يخفى عليها شيء مثل هذا، وهي ابنة الشمس الوضاحة الفضاحة.

يعجبها ذله وخضوعه، وعيناه اللتان تتابعان حركاتها، وتعدان خطواتها.. مسعود هذا الشاب الذي ما أن رآته في العمارة التي اشترتها وطلبت التعرف على سكانها حتى شبت فيها ناره، حالما اصطدمت بنظرته المائلة وكأنه قط صغير ضائع يتضرع لها لتلتقطه من مصيره المجهول، شبت ناره وانتهى الأمر لم تفكر في شيء آخر خارج ما هو عليه، لم يخطر بالبال سنه أو أصله أو فصله، النار التي اندلعت وانتهى الأمر لم تترك إلا الهشيم حوله.. لا شيء له قيمة خارج حدود تلك النظرة المستنجدة.. تداخلت صورته بصورة عبده.. يا له من تشابه بينهما.. إنه يشبه عبده ربما كانت النار تستمد حطبها من هذا الشبه الغريب..

نعم لأول وهلة رأت فيه عبده.. عبده الذي تيمته وعذبتة.. عذرا

تحب أن تعذب عاشقها قبل أن تسعده:

على مهل..

تربي نازَ لوعته،

على مهل..

تعصر قفافَ الكرز..

لتطفئها.

أن تقلقه أن تملأ كيانه كله، حتى لا يعود يقوى على جر تفكيره واهتمامه وطاقته إلى أمر آخر، غير البحث عن الظفر بها.. من هكذا الملكات لا يقنعن بالأنصاف، وفي قرارة نفس عذرا سليلة الملكة تينهينان لا تغفر لنفسها أن تكون أقل منها، بل من واجبها أن تكون في المستوى والصورة المثلَى..

عذرا لا تكتفي بنصف اشتها، ولا يُرغب فيها كما اتفق.. لا.. إنها لا ترضى إلا بقلب كيان من يقترب منها رأسا على عقب، فتغير نبضه، وتسارع أنفاسه، وتشتت أفكاره.
- أنا التي أختار.. أنا بنت الطوارق.

لمحته، كان يقف مع بقية السكان الذين اجتمعوا في مدخل العمارة للترحيب بالملكة الجديدة.. كان الجمع من نساء ورجال يحيطون بها سعداء، مستبشرين خيرا بأخذها مكان القاضي قدور.. يبدو عليهم الارتياح وكأنهم اعتقوا من ربى قديم ثقيل.. كانوا يتسمون لها بفرح تشع من وجوههم السعادة بها بوجودها بوقفتها بحضورها، كأنما هو حفلها.. كأنما هي العروس.. إذن فلا حفل دون اختيار، في عرفها هي الطارقة..

ألقت نبالها دون عناء، كانت تعرف أنها ستصل حيث أرسلتها.. أمرتها.. حيث يقف هناك بجانب أمه وأخته، مترددا في الحديث إليها..

عيناه لا تبرحان وجهها، تبعثان من حين لآخر ذبذبات خفيفة تلهيها عن أحاديث الود والترحيب للسكان الذين يحيطون بها، فتلفت حيث هو فيشيح بوجهه.. وحين همت بالرحيل لحق بها.. كانت تدرك أنه سيفعل ذلك.. كان صوته، الشاكية نبرأته فاضحة له كأنه يئن.. جمل قليلة تحركت بينهما غيرت مصيره..

أثارها ذلك الشبه بينه وبين عبده.. نعم إنه يشبه طليقها الأخير عبده الذي لم يتوان في حملها مثل ريشة ثمينة نادرة تحت جناحه بعد أن أصر على الزواج منها بسرعة ليطير بها إلى بلاده البعيدة. كأنه عبده.. كأنهما صُبّا في قالب واحد.. هو.. طوله، لونه، ابتسامته، الزغب الخفيف الذي يطل من خلف رقبته.. يخلق من الشبه أربعين.. الناس قوالب.. عبده.

لم يكن سهلا على عذرا ترك البلاد، ولكنه عبده الذي تعلق بها مثل أمير طفل، مدلل.

- ثم ماذا.. لا بأس.. أليس هو أيضاً ابن الصحراء مثلنا؟
هكذا أقنعت نفسها وقومها قبل أن يأخذها عبده إلى بلاده وأهله..

لم يكن يشبع من النظر إليها، وتأمل حركاتها وسكناتها، لم يكن يمل الحديث إليها.. كلما نطقت اقترب من وجهها، فكأنه يتلفف لشرب كلماتها.. كانت عذرا فتنته ومبتغاه.. لم يكن يفهم أسبابه بل لم يكن يرغب في فهم ذلك، كان ممتلئاً بها مستسلماً والسلام.

لم تجد الطارقة القادمة من صحرائها في صحراء عبده التي حدثها كثيراعنها، شيئاً يفتنها.. لم تجد عذرا شايا أخضر ونعناعا، ولم

تجد جلسات الأنس المسائية المليئة بالصفاء والضحكات، لم تجد أنين الإمزاد بوتره المنفرد الفريد، وبوحه بالأسرار الأكثر إثارة. بل وجدت بنايات شاهقة وقصورا تنام وتصحو عائمة في هواء اصطناعي بارد مكيف، وجسورا وطرقا ملتوية ومستوية ومتقاطعة، وثرء وافرا وزوجة أخرى لعبده وبنتين له.

ضاق الصدر منها وتكدر الخاطر، لم تفلح السنوات الخمس التي قضتها هناك أن تنجرها، أو تحفرها، أو تفصلها على قياس جديد.. جميع محاولات عذرا للتأقلم ولو قليلا مع عالم عبده، باءت بالفشل الذريع. لم تفلح في تغيير معدنها. وكاد انهيار عصبي أن يقضي عليها، لا دواء له ولا سبيل للشفاء منه غير العودة.. هكذا نصح الطبيب. ظل عبده عاشقا متيما.. في حركاته وسكناته، ودودا، قريبا من عذرا، يحاول أن يؤنس غربتها ويؤثث وقتها، لم يدخر جهدا ولا طاقة ولا مالا لذلك.. قريبا من عائلته، فأخذها لتزور قصور أهله واحدا واحدا. كل واحدة من أخواته، تحرص على أن تجعل عذرا تتفرج على جميع غرف قصرها وصلالاته واحدة واحدة. الغرف والصالات والردهات، تصر كل واحدة ألا تشبه في ديكورها الأخرى..

بكت عذرا حين زارت قصر أم عبده المتوفاة، وجدت خيمة منصوبة داخل القصر، وكأنها تشهد على عالم منقرض.. أخبروها أن أم عبده بعد الانتهاء من تشييد القصر لها، أصرت أن تنقل خيمتها إليه، وترفع أوتادها داخله كعادة رفع الخيام، علمت أن أم عبده لم تكن تبرح خيمتها رافضة أن تؤثث وتكيف مثل باقي القصر، كانت تدري أنه سيصعب عليها ترك خيمتها، ولن تستطيع العيش خارجها فتم نقلها إلى القصر كما هي، ظلت أم عبده فيها لا تبرحها حتى رحيلها.

ترتاح عذرا كثيرا لسعدة إحدى أخوات عبده، ربما لأنها أقرب منها سنا، أو لأنها لطيفة ولبقة وصريحة ومحدثة بارعة. أو ربما لأنها تبدو امرأة يحيط بها الكثير من الأسرار.

سعدة جميلة فاتنة، ترفل في أعلى ما صنعته الدنيا من حرير، إلا أن بريق حزن يسكن أعماق عينيها ونبرات صوتها، تفضي لعذرا بمزيج غريب من الكبر والأنين في صوتها، بينما هما تتجولان في أرجاء القصر:

- الروتين أعدى أعدائي يا عذرا.. لذلك اشترطت أن تكون كل صالة في قصري من توقيع مهندس عالمي مختلف.. ومن تلبس وتأثيث مشاهير الديكور في العالم.

كان الترف الواسع يطل من كل شيء.. من الثريات الفخمت غرائب الأشكال، النازلات كرهاذ زجاج مصهور منشور حتى أرضية الرخام الأخضر. الثراء يفوح من طبقات قماش الستائر النادر، أقمشة شفافة وسميكة تغطي بعضها البعض في تدرج متناسق من الألوان والأحجام، ربطت بأناقة بأحزمة مذهبة ومفضضة، كأنها عرائس معلقة. الثراء يطل من الأرائك المتجمعة هنا وهناك مثل نساء جالسات يوشوشن الأسرار، ويفوح من الأسرة الفخمة، والخزانات ذات أبواب وفتحات على شكل كوى صغيرة منقوشة بأشكال منسجمة، وأخرى شاهقة تكاد تصل السقف.

عنوة تفتح سعدة الأبواب لتطل الألبسة الفاخرة المعلقة وصفوف الأحذية الكثيرة المرصوفة. تلمح عذرا كل ذاك دون انبهار.. تمتد الزرابي منبسطة على مساحات واسعة، وأخرى متدلّية تزين فضاء المكان، حتى لا يكاد يُرى جدار واقف.. بينما الرخام الأبيض الأصلي يكاد يفرد أجنحته ويطير مثل الحمام على السلالم.

سعدة أخت عبده من أمه وأبيه، جميلة، بأنف صغير قُذ بأصابع ومبضع جراح بارع، وشفاه ممتلئة حتى التمام، وخطود مرفوعة وكأنها مشدودة بصمغ، وخال اصطناعي يتربع بشموخ عند طرف أنفها، لا تفتأ تنظر في المرايا الواصلة بين مساحات القصر في طريقيهما، وتعديل من خصلات شعرها الأسود البراق، حركاتها البطيئة على قدر كبير من الرشاقة.

كم من متعة فائقة تجدها سعدة وهي تحدث عذرا بهدوء وأناقة عن أثار قصرها المستقدم من إيطاليا، وفرنسا، وإسبانيا، وعواصم أخرى.. تتكلم بغنج شديد فيخرج نصف صوتها من أنفها الصغير بينما يتعثر النصف الآخر في ممره من حنجرتها حتى شفاها مرورا بأسنانها البيضاء المتراسة بعناية فائقة.

وقفت سعدة عند الآلات الكثيرة التي تملأ صالة حمامها الخاص المتشكل من غرف متعددة كل واحدة متخصصة في الاعتناء بجزء من جسدها، يشرف عليها متخصصون أجانب، كانت تشرح لعذرا فوائدها الجمّة، ثم فجأة مالت على إحداها بحنان:

- هاذي المفضلة عندي يا عذرا.. ما كان عندي خصر قبلها..

والله..

كم تبدو سعدة على هناء، وهي تنشر ممتلكاتها، وتعدها أمام أعين عذرا التي بدورها، وبشق الأنفس، تحاول أن تركز انتباهها وتنصت للتفاصيل الكثيرة الدقيقة الواردة في كلام سعدة، وتستفسر أحيانا عن هذا أو ذاك، لكن انتباهها كان يفلت منها هاربا، فمن حين لآخر تسهو وتغيب، وتبتعد باحثة عن الصحراء فيها، وفي داخل هذه المرأة المقابلة لها، التي نضت عنها ثوب الشمس والرمل بسرعة، ومن

زمن قريب، طالما سمعت عبده يسميه بزمن النفط..

كيف استطاعت الصحراء أن تخرج بصهدا وتفاصيل يومها من قلوب الناس، بهذه السرعة.. فلم يعودوا يحنون إلى خيامهم، وحياتهم السابقة، يسقطون في عشق الجدران السمكية والمكيفات، والآلات والسيارات الفخمة الضخمة، ويعيشون داخل عالم اصطناعي محكم الغلق.

انتهت عذرا إلى أنها تتزحلق فجأة فوق بقعة سوداء لزجة براقا.. كانت الأرض كلها تحت رجليها سوداء.. السائل ذو الرائحة النفاذة يصعد قليلا قليلا في هسيس كأنه فحيح أفعى، يصل حتى الركبتين، ثم حتى منتصف الخصر.. أصبح المشي عسيرا.. الخطوة الواحدة بألف جهد.. صعبة هي الحركة. جسد عذرا كله أطبقت عليه اللزوجة السوداء اللماعة. تشعر به يملأ ثقبه، يتعرثر السائل الأسود اللزج بصدرها الفخم ويرتطم بجنبات الأرائك الباذخة الثمينة، والخزانات، ثم لا يلبث أن يصعد فيغمر الستائر الأنيقة، الممتقاة بمنتهى الدقة والرقعة، يبللها ثم يغمرها. يتدلى القماش ثقيلًا، فتختلط الألوان والرسومات من عليه وتغرق في السواد، لا يعود يبدو منها شيء، ثم لا تلبث أن تغيب تحته.. تتحرك الكتلة.. تتناول على كل شيء، تغطي كل شيء، تلف الزرابي والبسط والأسرة الفاخرة، والحجب المخملية.. تشبث الجزئيات السائلة بكتلة القماش الثقيل المبلل، أذرعها السوداء تمتد نحو الأعلى، تلتقط الزُّجَيجات الرقيقات المتلاصقات النازلات من فوق سقف الصالات، شبةً عناقيد عنب شفاف.. لم تعد الثريات تلمع من ارتطام الضوء عليها، ومن فسحة الفراغ الأبيض العائم في الأشعة..

السائل الكثيف الأسود اللزج يطغى يرتفع، ويلف تحته جميع

الألوان والأحجام.

النفط يملأ الحاويات الرابضة، المهيأة للإبحار والطيران، النفط يملأ فناجين القهوة وملاعق السكر، وقنينات إرضاع الأطفال. النفط يحشو الأسرة ووسائد الليل، وآهاته وتنهذاته، ويغلف موائد النهار.. يلون النظارات والعدسات اللاصقة والورد الاصطناعي ويتسرب إلى كل شيء، يتناول على كل شيء مثل لسان أفعى سريع وقاتل، يغلق السقف ويحظر الشمس.. كل شيء مغلق، مغلق.. النفط.. النفط.. النفط.. النفط.

- هذا هو المطبخ يا عذرا.

.. هو الصوت المنغم لسعدة.. سعدة الجميلة، الأنيقة حتى أطراف أظافرها، مزهوة بعرض ثرائها أمام عيون الطارقة القادمة من صحراء أخرى. صحراء لم يغيرها النفط، على الرغم من أنه يجري سائلا سخيا تحت رمالها، يسري في قنوات سرية توصله إلى دول بعيدة، غريبة لا تعرفها..

تشير سعدة بأصابعها الملساء، ذات الأظافر الأنيقة الطويلة المصبوغة بالأحمر القاني، وهما تعبران بابا آخر، تتراص به آلات كهربائية من كل نوع، بينما في ركن هناك تقف مجموعة من الفتيات بعيون مسحوبة، يتوارين خلف بعضهن البعض، ويتبادلن نظرات كأنها لغة.

- هن خادماتي كل واحدة مكلفة ومختصة في عمل.

أحد عشر خادما وخادمة، وسائقان، وبستانيان. وحارس ليلي. بينما كانت سعدة منهمكة في الرد على مكالمات بهاتفها الجوال، وتسترسل في ضحكات خفيفة، من حين لآخر، وتتمايل وكأن محدثها يطل عليها، فإن عذرا لم تعد تقدر على رمي الخطوة أو حتى التلفت..

السائل اللزج الثقيل يعيق حركة كتفيها، وعنقها ورأسها، عدلت من ثوبها الطارقي فوق كتفيها، لباسها الذي لم تتخل عنه أبدا ولم تغيره، ولم تفتنها أشكال العباءات الخليجية الأنيقة، الجميلة، الثمينة، التي يشتريها عبده ويهديها لها.. كانت قد ذهبت بعيدا:

- في صحرائي أيضاً نفط غزير أو هكذا يشاع منذ أزمان.. إلا أننا نسمع به ولا نراه.

تقول الجدات الطارقيات اللواتي لا يخطئ ظنهن ولا تخيب فراستهن، إن النفط هذا وما يشبهه من الخيرات الراقدة تحت الرمل، هو ما جذب الفرنسيين إلى استعمار البلد والتوغل في صحرائه، حتى أنهم بمفاوضات خروجهم من باقي البلد بعد الاستقلال، حاولوا التفاوض مع الحكام الجدد، لبقاء الصحراء وحدها تحت سيطرتهم، لا لشيء سوى لأنها مخزن ثروة لا تنتهي.. النفط كان السيد والمحرك أثناء الاحتلال، يعبر فوق الأرض.

بعد انتهاء الاحتلال ظل النفط نفسه السيد والمحرك، تعبر قنواته تحت الأرض تحت رمالها، دون أن يسمع هسيسه أحد.. مثل الأفاعي التي تعبر أجسادها اللينة الملساء ذرات الرمل تختفي تحت الكثبان لتظهر من جديد بمكان آخر بعيد جداً.. تزهو بحريها هناك..

- شوفي عذرا.. هاذي المجوهرات ماتي.

خزانة ضخمة حديدية، تفتح سعدة بابها السميك بعد عدة تدويرات متتابعة متوقفة عند أرقام حول مقبضه، كأنما منسوب الضوء كله المتواجد في الصالة انجذب إليها، شع بريق الذهب أبيضه وأصفره وعقود اللؤلؤ والماس، والأحجار الكريمة. ارتسم مهرجان متلألئ في تجاذب الضوء، يلعب كما تلعب أجساد حبيبات الرمل البراق تحت أشعة شمس الصباح.

سعدة الفاتنة، البذخة، الثرية، المدللة، التي لا يتوقف هاتفها الجوال عن الرنين.. ولا تتوقف عن ضحكاتها الخفيفة المتواصلة تلك وهي تميل رأسها، وكأن أحدا ما، يرتدي طاقة إخفاء، لا يتوقف عن مد يده إلى عنقها.. كأنما هي سعيدة..

لا.. لم تكن سعيدة.. وجدت في عذرا ضالة الشكوى.. عذرا الغريبة تجلس إليها طويلا.. تحدثها عما لا تراه ولا يراه أحد.. عن هموم امرأة مترفة جميلة، يضطرم الغضب ويتلوى الحزن خلف ملامحها الحسنة ومفاتها.. تخاف الوحدة وترعها الشيخوخة على الرغم من أنها ما تزال في سن بعيد عن هوس الكبر.. لعلهما العدوان اللدودان الأشد خطورة اللذان يرهبان سعدة، فتعد لهما ما استطاعت من قوتها وذكائها ومالها وخيلها وخيرها..

- علامات السن هي علامات الساعة بالنسبة للمرأة هنا يا عذرا.. من خلال جلساتها إلى سعدة ومعايشها وخلال محادثاتها الطويلة وحواراتهما وتنقلاتهما، اكتشفت عذرا أشياء كثيرة لا يمكن أن تقدمها تجربة عشرات السنين.

لعل جبل الود المتين الذي ربط بينها وبين سعدة وقرب بين أحاسيسهما هو مصيرهما المشترك في عدم الإنجاب، وهو أمر جعلهما تشعران بقرابة تكاد تكون دموية، بقرابة شجرتين باسقتين غير مشترتين. دون سابق إنذار يتعاضم في قلب سعدة الشعور أن عذرا الغريبة الآتية من عالم بعيد ومجهول بالنسبة لها، أقرب إليها من أخواتها غير الشقيقات، إنها تتقاسم معها أهم إحساس لا تعرفه النساء اللواتي ينجبن، الشعور أنها اللؤلؤة الفريدة تحمل قيمتها في ذاتها، اللؤلؤة اليتيمة.. تقارب ما بين المرأتين.

وكما تفعل سعدة التي لا تدخر شيئا من أجل أن تتعلم فتدفع

المال الطائل لمدرسات من شتى الجنسيات يأتين إلى قصرها كي يقدمن لها دروسا في اللغات والعلوم الأخرى، فإن عذرا استقدمت أيضا المدرسات لتعلم اللغات والأدب ودروس مكثفة في شتى علوم أخرى.. كانت خمس سنوات من حياة عذرا، محاولة يائسة للهروب من الحنين تحولت إلى سنوات من التحدي، والبحث عن إطفاء عطش الفضول لمعرفة كل شيء. لعل صداقتها بسعادة الذكية، الغاضبة، المتمردة على العادات القديمة بهدوء، سعادة التي تشبهها في العقم والوحدة، لعلها دفعت بها نحو فضاء مفتوح على التجاوز، الخمس سنوات المكثفة الغنية كأنها خمس عشرة سنة. لم تضيع عذرا منها يوما واحدا، لم تملأ بما يطفئ عطشها للمعرفة وفك رموز العالم المجهول حولها، وما يمكنه أن يخفف عنها الصراع مع الشوق والحنين.. كأن تشن حربها على الذاكرة، أو تلاعبها لعبة الغمضة.. ظلت عذرا تملأ تجاوب الذاكرة بما تتعلمه من جديد، بحيث لا تترك سوى وقت قليل للوحشة تنكل بها أشد تنكيل.

متفتحة الحواس عذرا، بذكاء نادر وفطنة، مستعدة لاكتشاف وفهم ما يصعب على غيرها، أن تعرفه، أن تسأله، وأن تفهمه، وأن تناقشه. سنوات خمس معدودة على كف واحدة، كانت كافية لتحول خلايا دماغها إلى قبائل نحل، لا تكل ولا تمل من حركة أجنحتها، أو من ذلك الرقص الذي يملأ جوار السماء بالعسل.. الفطنة نعمة.. لم تكن تمر شاردة ولا واردة إلا وتقف عذرا عندها، لتسأل المدرسات وتلح حتى تكشف سرها وتعلم أمرها، ثم تناقشها في المساء مع سعدة.

ذلك الصباح قبلها عبده بشغف كعادته ثم قال:

- عذرا تذهبين معي إلى الحج؟؟..

لم تقل نعم ولم ترفض إلا أنه منذ أصبح اسمها مركبا هكذا:
 «الحاجة عذرا» اختفى بعد فترة قصيرة اسم عذرا. صار الجميع
 بمن فيهم الخدم والغرباء ينادونها «الحاجة» فقط. منذئذ لم تعد
 تسمع اسمها «عذرا». حتى عبده لم يعد ينطق اسمها الذي تفتخر به
 ويذكرها أن لها وجودا مستقلا، لم يعد يلصق إلى أمها وإلى أبيها
 الطارقي الأزرق. شعرت أنها تفقد كل شيء يربطها بأصلها، فبدأت
 رفضها للقصر المغلق المبرد.

عبده متزوج من امرأة أولى وأب لبنتين.. لم تعرف عذرا ذلك
 إلا بعد أن حطت رحالها هنا، لم تغفر له ذاك.. كيف تقدر أن تفعل
 وهي الطارقية التي تمنعها أنفة الملكات أن تكون لها ضرة..
 - أنا عذرا.. بضرة.. ما هذا الهراء؟؟

- عندنا هنا الزواج باثنتين أو أكثر، مسألة عادية يا عذرا.
 لم تهضم عذرا فكرة زواج رجل من امرأتين، ليس في تقاليد
 أهلها الطوارق الجمع بين زوجتين، ولا المرأة تجمع بين رجلين..
 المسألة لا تبلى، ولا نية في قبول الأمر الواقع، ولا يمكن أن تفرط
 في قناعاتها.

بعد تفكير طويل استقر في أعماقها طلب الطلاق. هذه المرة
 يختلف الأمر عن المرتين السابقتين. ليست عذرا من يطلق مثل عادة
 الطوارق بل الزوج.. إنه هو.. عبده. فلا بد من اللين والحذر.

عبده متزوج من امرأتين، ويمكن له أن يفتح بيوتا أخرى،
 لزوجات أخريات.. سعدة متزوجة من رجل له ثلاث زوجات
 أخريات..، وسعدة هي الزوجة الثالثة، وليست الأخيرة.

- تصوري يا عذرا تزوج بعدي أنا.. ليش بعد.. ما كفاه البغل..
 شكت لها سعدة بحرقه ذات يوم..

صراحة سعدة وعفويتها وطبعها المتمرد، أعانها على معرفة أمور عدة كانت تعتبرها غريبة ومستحيلة.

- الأمر هنا عندنا يكاد يكون محسوما وعاديا يا عذرا.
يكرر لها عبده مرات عدة.. كلما عاتبته بعدم مصارحته لها من قبل بذلك.

لكن على الرغم من أنها لم تعد تنظر للمسألة بالغرابة التي كانت عليها، وبعد أن تأكدت أنها ليست خاصة بها وحدها، بل تكاد تكون طبيعة ثانية أن يتزوج الرجال هنا ثانية، وثالثة، ولا نقاش. هدأت غضبة عذرا ولكنها لم تستكن.

في ثقافة عذرا الطارقية، زواج الرجل بأكثر من واحدة ليس أمرا مرفوضا فحسب، بل ولا يمكن حتى تصوره أو التفكير فيه..
ولا نقاش.. لكن:
- آه عبده..

لم يخبُ ولهُه بعذرا.. ولم ينقص دلالة لها بدرجة، ولم يخفت اعتناؤه بها.. لكن عذرا تنام وتصحو على الحنين.. صعب عليها أن تتألف مع حياة ليست تشبهها، مع أمكنة تغيب عنها السماء.. لم تتعود على حياة الأقفاس، هي الطارقية حرة الجسد والروح ومرمى النظر.
من أين يأتي لها بقطعة من السماء الحية، كيف له أن يروي عطشها بزرقتها، وأن يسكن من وحشتها، فتطل عليها ليل نهار وهو العارف من أي سماء منبسطة مفتوحة على الكون جاءت عذراه.

لم يكن عبده أنانيا على الرغم من ولعه بها.. ربما لأنه كان يعرف أن أمه السويدية، لم تستطع أيضا أن تتخلص من ثقافتها، وأن تتألف مع غربتها، وأن تستغني على خشخشة الثلج تحت قدميها،

ولم تستطع أن تهضم مشاركتها زوجات أخريات في رجلها، ففضلت العودة إلى بلادها.

لم يضغط عبده على معشوقته بنت الطوارق، التي لم تمهلها الغربة يوما واحدا دون حنين، حنين حارق تحاول الدموع إطفاء نيرانه. طلبت منه مرارا أن تستعيد حررتها، وأن يرجعها إلى بلادها.. الشعور بالغربة يفوق كل شيء، لم يستطع أي شعور آخر أن يتجاوزه. كانت عذرا تزداد وهناً، وتفقد وزنها بشكل لافت للخوف حتى خشي طبيبها من الانهيار العصبي المهدد، قبل عبده على مضض، وعلى مخاوف الطبيب والحاح عذرا..

فكر طويلا قبل أن يرجع بها إلى عاصمة بلادها، ويسلم لها كل ما يملكه هناك.. يكتب باسمها شقتين جميلتين متقابلتين في وسط المدينة، وإقامة فخمة سلمت له من صديقه طويل العمر، الحاكم الأوحده، عربون صداقة قديمة متجددة، واعتراف بمحبة لا تبلى.

تقع الإقامة بأجمل منطقة من البلد، محروسة لا يأتيها القلق أو الخطر من جهاتها الأربع، لا يقطنها إلا الراسخون في القوة والسلطة والوجاهة، يطلقون عليها اسم نادي الصنوبر.. كان عبده يحاول أن يقوم بما فعله أبوه مع أمه السويدية التي كادت تقتلها الغربة في بلاده، فأعادها بأمان إلى بلادها.

منذ أن وطئت عاصمة بلادها ظلت عذرا تفكر في الرجوع عند أهلها، ولكن لعنة العواصم أصابتها، كما أصابت الكثيرين.. وكما يشاع، فإن من يسكن عاصمة ما فترة، غالبا ما لا يعود الى حيه إلا بمعجزة..

باب الرغبة.. بوابة السهاء

عبده مسعود.. مسعود عبده

كأن مسعود عبده وكأن عبده مسعود..

لكنها تتجاهله عن عمد.. هي هكذا مثل غزال الصحراء الشارد لا يلمحه أحد إلا وهو على عجلة من أمره هاربا، يلاحقه النظر.

تستيقظ عذرا، تتلملم في فراشها.. ترفع كفيها، تنظر إليهما بتمعن.. إنهما حريريان جميلان.. تتأمل أصابعها المحناة أطرافها.. تلامس استدارة كتفيها فعنقها فصدرها. تصطدم بحلمتيها النافرتين، الصارختين. ملسوعة تهرب نحو بطنها، تنزلق كفها الى الخصر قليلا قليلا.

كان مسعود يملأ الغرفة بجسده ورائحته وشعره الأشعث الغزير، ونظرته الكسيرة من عينيه المائلتين اللتين تلهيان الرغبة.. كأنه دفع الباب بقوة، ثم ولج الغرفة بزمجرة وضجيج، كان يتنفس بسرعة وهو يرمقها من فوق حصان جميل أرعن، لا يتوقف عن القفز في أرجاء الغرفة، يدق بحوافره الأربعة أرضيتها الملساء فينزلق، بينما يملأ الجو صرير السرج ورنين اللجام. ما هذا الضجيج.. كيف استطاع هذا الحصان البهي أن يلج الشقة ويتغلغل إلى الغرفة، يركبه مسعود،

وكانه جزء منه.

لم يترجل ولم يحد ببصره عنها..

يا للحصان الأهل كأنه عنوة لا يتوقف عن تبديل وقفته بين

اعتدال وانحناء، والرقص على قوائمه الواحدة بعد الأخرى..

خشيت عذرا أن يزعج رقصه المجنون الجيران في الطابق

الأسفل، سيتفطنون لوجود حصان في الطابق الأعلى من العمارة..

يا للفضيحة ما الذي يفعله حصان في الطابق الأعلى وسط عاصمة،

ثم ليس من المسلي لحصان أن يقفز ويرقص في شقة بطابق علوي،

ما هذا يا مسعود؟!

أما كان عليه أن يروضه قبل أن يجيء.. كما ينبغي لفارس حقيقي

مغوار أن يهدئ جواده..

الحصان الجميل المجنون لا يتوقف عن القفز، راقصا على

قوائمه الأربع. يجذب مسعود الجزء اليمين من اللجام إليه، فيميل

عنق الحصان القلق يمينا. ثم يجذب الجزء اليسار إليه فيدور يسارا،

دون أن تتوقف قوائمه عن خطواتها المتزنة القوية.

- غريب.. من أين جاءت مسعود الفكرة أن يأتي دون حرج

منتصبا على ظهر حصانه وسط الغرفة.

يجذب طرفي اللجام معا فيستوي الحصان الهائج على قائمته،

وينطلق في سهيل متواصل أجش عنيد، كانت عذرا تقيس ارتداداته

من البحر حتى أبعد واحة.

لم يكن يبدو على الحصان الجميل الأهل الجوع ولا

العطش ولا التعب.. الحصان المحصور بين باب وستة

جدران، نبت فجأة في خاصرته ستة أجنحة.. أجنحة بيضاء سخية

الريش وافرتة. انتصب الحصان واقفا في هواء الغرفة، طاويا قائمته

الأماميتين، وكأنه يقلد طيرا أسطوريا عجيبا، ثم راح من جديد في صهيل مبحوح، قوي، مجروح، ممتد، حتى انكسر زجاج النوافذ وتناثر مثل ندف القطن.. نظر الحصان إلى السماء بشوق هائج، دقت حوافره على الأرض كيما تأخذ توازنها في الدفع، ثم طار.

.. هدوء غريب يلف الغرفة.. يلف لهاث عذرا ونفسها المتقطع، وقطرتين من عرق فلتتا من جبينها. تلعن في سرها شيئا ما، أو كأن جملة من البارحة نسيتها على لسانها، فما فتئت تدغدغه كي يتحرك ليحررها.

- مسعود..

مثل ديبب النمل يتسلل الخدر في عروقها، وضوء الصبيحة إلى عمق عينيها نصف المفتوحتين، تنوءان تحت ثقل الرموش.. ضوء ليس كذلك الضوء الذي تحن إليه..

تنهض عذرا بثاقل، وكأن ألفا من خيوط شفافة، تضمها، تلفها مثل شبكة صيد، وتجرها بهدوء ولين نحو النافذة.

لا مجال لرؤية السماء منبسطة شاسعة وحررة مثل هناك.

تفلت لعنة من بين شفثيها.

ألا يمكن لتلك البنيات الشاهقات، التي ترتفع بلووم في وجهها، أن تتململ.. أن تذهب إلى الجحيم.. كأنها حواجز حديدية في كوة سجن. أما آن أن تتزاح.

المستعمرون هنا أيضاً، لم يتركوا السماء بسلام، هنا أيضاً نصبوا لها خوازيق وغرسوا سهاماً صدف مسمومة..

كنت أظن قبل أن أعرف الحياة هنا، حينما كنت أسمع عن حكايات الرخاء الذي يعيشه أهل شمال البلاد، بعد أن افتكروا المدن

بما فيها من المعمرين، ولكنني بعد أن سكنت بها هذه السنين وعرفتها جيدا، لم أجد سعادة تذكر..

الناس هنا البسطاء منهم طبعاً، هؤلاء الذين يمتلئ بهم الشارع، هؤلاء الذاهبون من مساكنهم في الصباح الباكر، العائدون على الساعة الخامسة أو السادسة من إداراتهم وأعمالهم ووظائفهم، لا حياة لهم تذكر. يخرجون صباحاً شاحبي الوجوه منحني الظهر، يتكدسون في الحافلات أو في الشوارع المكتظة بالسيارات، حتى لتبدو وكأنها سيل عارم من الحديد، ثم يعودون في المساء متعبين، منكسرين، أكثر ذبولاً وشحوباً من الصباح، يتوقفون عند الخبز والبقال بسرعة، ليبحثوا عما ينقص العشاء، ثم ينامون مبكرين مثل الدجاج في خمه، ليستيقظوا في اليوم التالي من أجل الدورة نفسها، فلا تختل الدورة تلك إلا بالمرض. ثم يموت الشخص هنا فلا يسمع رفيف روحه حين يودع. إنني أشك في وسط هذا الزحام والحيطان والبنائيات المترصة، أن تصل روحه في موعدها إلى السماء لأنها ستكون قد أغلقت أبوابها. أو يظنون أن أبواب السماء تظل مفتوحة كما يشتهون؟!!

عندنا.. السماء قريبة من الأرض، قريبة جداً.. بل أحياناً تلتقيان في الأفق، تجلسان معا حتى تكاد تسمع حديثهما عن بعد.

.. كلما استغرقت في معرفة تفاصيل هذه المدينة، واكتشفت أمعاءها، كلما زادت خشيتي منها على نفسي.. أن تتغير نفسي.

هنا لا أحد يسمع أحداً، القرعة الطرشاء للحديد الساكن والمتحرك تغطي كل شيء.

ثم لا أحد يسأل عن أحد.. يحدث أن يسكن شخصان في عمارة واحدة لسنين عديدة، فلا يتبادلان التحية ولا الكلام ولا يعرف أحدهما عن الآخر شيئاً.. كم غريب علينا هذا نحن أبناء الصحراء، أنا

لا أستطيع الامتناع عن زيارة البنات المستأجرات كل مساء والاطمئنان على أنهن بخير..

- العواصم كلها هكذا.. باردة القلب ومتشابهة.

قال لي عبده ذات مرة.

ولعل ما جرى في السنة الماضية يدل كثيرا على وحشيتها لن أنساه أبدا، ذلك الحدث الرهيب الذي أرعب ليالي وأيامي لفترة طويلة، حين مات ساكن الطابق الأخير ولم يدر أحد بموته، رائحة تحلله وحدها التي أخبرت السكان بذلك.. كان كاتباً وشاعراً، صادفته مرة على السلم نازلاً فحيّاني باحترام بالغ.. ليس من العادة هنا تبادل التحية في السلم.. لكنه سبقني وفعل.

علمت في ما بعد أن اسمه جمال، وأنه كاتب صريح وشجاع ويدافع عن المظلومين والناس المهمشين والفقراء والبسطاء ولذلك فهو مغضوب عليه، فأبعد وهمش بسبب مواقفه الصريحة وانتقاده السلطة لتبذير المال العام باسم الثقافة، وبسبب تصريحاته بعدم كفاءة المسؤولين عليها، وفراغ حكمهم من أي مشروع ثقافي.

كم تألمت حين قيل لي إن أحدا لم يعد يزوره، أو يتحدث إليه، فكلما أجري حوار معه، لا يكتب له الظهور لأنه يمنع، وكلما دعاه مدير دار ثقافة أو مدير مؤسسة لإلقاء محاضرة أو للمشاركة في لقاء أدبي إلا وفصلوا من مناصبهم، حتى أغلب الأدباء مثله ومنهم من كانوا أصدقاء له أضحووا يتجنبونه ويتحاشون حتى ذكر اسمه في المجالس العامة، يخشون على امتيازاتهم وعلاقتهم مع السلطة.. عزل المسكين وأقصي وحوصر حتى تم نسيانه، منذئذ أصبحت أنظر بعين الريبة إلى من يدعون أدباء وكتابا. فكلما سمعت بأحدهم يحتفل، أو يحتفلون بصدور كتاب له، وأشاهد أحدهم في جنة الصنوبر يتهادى

بطوله وعرضه ويتبخر، أو سمعتهم هنا وهناك يتشدقون بجمل كبيرة معقدة لا يفهمها أحد ولا هم أنفسهم إلا وأشمئز.. نعم أشمئز وأتذكر جمال.. أتذكر جمال الذي رأيته ينزل السلم بتوأدة وعسر، من شقة أعارها له أحد أقربائه، أثارني وهنه وأنا أراقب خطواته من فوق، تنم حركات رجله البطيئة، ورأسه المرفوع عن امرئ أتعبه الزمن ولم يشنه، نخره المرض ولم يفرغه من جوهره. أحسست أنه أقرب إلى قلبي بعد ما سألت عنه الكثيرين.. كانت رغبتني عارمة أن أعرف عنه كل شيء.. ليتني عرفت ذلك من قبل.. ربما ذهبت إليه وآنسته.. ألم يعد على الأرض خير؟

اللجنة على العواصم، مليئة بالغرباء مثلي.. لا أحد يسأل عن الآخر أو يزوره أو يقلق عليه..

ترى هل سأعود إلى صحرائي يوما بما بقي سالما مني، أم سأفقد نفسي وطارقيتي.. وأنتهي مثل جمال.

نحن الطوارق لم يمسن كل هذا التشويه الذي أفرغ سكان الشمال من إنسانيتهم. ما زال الطارقي منا يحتفظ بجوهره وبريقه على الرغم مما تعرض له من محاولات كسر وتحطيم هو الآخر.

حياتنا نحن الطوارق مرآة لاسمنا الأصلي العريق «إيموهاغ» الاسم الذي ما زال يشبهنا ويدل علينا «الأحرار».. نعم.. كلمة الأحرار تدل علينا.

لست أدري لماذا أشعر بالتفوق وأؤمن أنني من تربة أخرى مختلفة، معجونة بماء الحرية والحياة المنطلقة المفتوحة على السحر والأسرار والفرح..

ما هذا الذي يعيشه الناس هنا.. يسمون هذا الكائن الحجري الميت مدينة، إنها مقبرة متحركة.. يتململ الناس فيها وكأنهم موتى،

بلا روح ولا فرح ولا لحظات سرور. الفقراء يبحثون عن لقمة الخبز لهم ولأولادهم، فيصبرون من أجل ذلك على القهر والعبودية وأشكال التحقير، بينما يتسابق من هم في السلطة ومن هم في بلاطها، والأقربون والمقربون منهم على جمع المال..

المزيد من المال.. المال ثم المال ثم المال.. لا تهتم الطريقة ولا يهم الوقت، لعلها تمتعتهم الوحيدة والمشاركة بينهم.

لم أضع مفاتيح نفسي في يد أحد، اعتمدت على نفسي وطبعي الطارقي اللين الودود، فسهل لي التعرف على هذه المدينة أسافلها وأعاليها، والاقتراب من أهلها ومحاولة فهمهم، من ناسها التحتيين البسطاء والفقراء، وأقوامها القوامين الحاكمين الفوقيين.

تعرفت على بعض كبارهم فعرفت كبائرهم وصغائرهم، ما عجبت له واشمأزت منه نفسي هو أن لا شيء يدفعهم للمنافسة ويغويهم بالتجاوز سوى كسب المال، لا تهتم الطريقة ولا الوسيلة فكل الطرق واردة وشاردة وجائزة لجمعه والاستيلاء والاستحواذ عليه، إنهم يتنافسون في من يكون له الرقم الأعلى، والمبلغ الأرفع، والحسابات المركونة في البنوك المركزية المحلية والأجنبية وخاصة بالعملات الأجنبية طبعاً..

هذه المدينة مثل مدينة عبده وسعدة.. لا فرق، لا متع فيها ولا حياة، في هذه المدن الجميع يحسب، ويعد، ويفتح حسابات، ويغلق أخرى، ويدمج أخرى مع أخرى، ويصرف أخرى إلى عملات أخرى. كانت سعدة تقول لي وهي تبدو متفاجئة وسعيدة:

- هذا اليوم زاد حسابي ضعفه.. ما تقولي لي مبروك يا عذرا؟؟؟
ويتהלل وجهها.

وهنا يحتفل الكبار كلما أحكموا قبضتهم وافتكوا صفقة مع الدولة.. منهم فيهم..

لا فرق.. لا فرق. الحسابات البنكية السمينية وحدها العمود الفقري لسعادة الكبار هنا، أحيانا لا ألعن ذلك اليوم الذي غير قدرتي، اليوم الذي رميت فيه شبكي حول عبده وأوقعت به عاشقا، فكأنما أوقعت عالما كاملا أمامي لاكتشف خباياه، بل أحيانا أشكره لأنه غير قدرتي وأثرى معرفتي بما يجري على الأرض، فصلت وجلت وتعلمت أشياء كثيرة، أشبعت فضولي بما لا يخطر على بال طارقي. وحين رجعت وورجع عبده إلى بلده وأهله. لم أعتد كثيرا على معارفه النافذين في كل مصالح الدولة، ولكنني اقتربت منهم كثيرا فقط لكي أعرف معدنهم وأفهم ما يدور في كواليسهم، المال الوفير الذي تركه عبده بين يدي، جعلني أتجاوز عقبات عديدة، لكنه لم يكن مبتغاي الأول والأخير.

أول فكرة راودتني هي المزيد من التعلم، وهذه المرة ركزت على تعلم اللغة الفرنسية، الجميع هنا يتكلمها. تبدو أميا وغريبا إن لم تكن تفهمها على الأقل. الشارع يتحدث بها، وعلمت من أحد أصدقاء عبده المقربين المتنفذين أن الكبار يفعلون كل شيء بها وحتى الاجتماعات التي يعقدونها في الوزارات وبين الوزراء ورئيس الحكومة وبين الرئيس والحكومة تجري باللغة الفرنسية.

لو علمت هذا من قبل لكنت أمضيت السنوات الخمس في بلد عبده فقط لتعلم الفرنسية، وقليلًا منه للعربية يبدو أنها لا تفيد كثيرا هنا.. الفرنسية مهمة جدا هنا مثل الإنجليزية في بلد عبده، العربية لا تفيد إلا لنشرة أخبار الثامنة الرسمية.

على كل حال، أعتد كثيرا على قدرة «العالية» المعلمة التي تأتي

إلى بيتي في بداية الظهيرة لتدريسي الفرنسية بطريقة مكثفة.. أنها امرأة جادة وطيبة، أصبحت من أقرب صديقاتي.

منذ أن قررت الاستقرار هنا، بعد أن عاد عبده وكله أمل أن أعود إليه:

- عذرا.. خذي بالك من نفسك.. وسأكون عندك إذا ما أشرت.
منذ أن سافر وأنا أجري لاهثة كي أتعرف وأفهم سر سكان هذه المدينة، أنا امرأة لا أحب الاستكانة، وجدت أن أغلبهم منغلزون على أنفسهم، وكلما عرفتهم أكثر كلما عرفت قيمة نفسي أكثر..

حين تقترب من أحدهم، فإنه سينظر إليك بعين غير مطمئنة، وإن سلمت على أحد فسيشك أنك سرقت منه شيئا للتو.. وحالما تختفي في الزحام يتفقد جيوبه وما يحمله..

عرفتهم فزدت تعلقا بروحي الصحراوية، وقيمي الطارقية:

- أنا عذرا وما أدراك من عذرا..

أنا عذرا بنت الطوارق أشعر وسط هذا الركام من البشر المتعبين بهواجسهم، أنني حرة الروح طليقتها، خفيفة الحمل وسط نساء هذه المدينة، مثقلات القلوب بأشياء لا تدرك، وبعيون حزينة بائسة، على الرغم مما يتظاهرون به.

خلال السنوات التي عشتها وإلى الآن، ما زالت رغبتني في المزيد من الاكتشاف، قد أكون غاوية استكتشاف دواخل الآخرين، ولكن في الحقيقة أنا أبحث عن نفسي بين أناس هذه المدينة، ما زلت أشعر فيها بالغرابة، عزائي أن الغربة هنا هي قدر الجميع، ببساطة نحن جميعا غرباء هنا.

- أنا أكثر غربة منك يا عذرا.

هكذا فاجأتني نفيسة المحامية بقولها.. نفيسة التي ترعى أموالني

وممتلكاتي.. فقد إئتمنها عبده - من قبل - على مصالحه في غيابه، ولأن أملاكه صارت لي، فنفيسة أضحت محاميتي الخاصة، أستشيرها في كل كبيرة وصغيرة. تجاوزت علاقتنا الرسميات مع الأيام، فأصبحت صداقة حقيقية، تجمع امرأتين مختلفتين في كل شيء.

تدهورت صحة نفيسة مؤخرا، وعلى حين غرة، وظهر عليها التعب والوهن الشديدين، حتى اسود ما تحت عينيها..

تزور نفيسة طبيبا نفسيا مشهورا في المدينة، نصحتها به الأطباء بعد أن دلت التحاليل الطبية العديدة والمختلفة إلى خلو جسم نفيسة من أي داء عضوي، نحف جسد نفيسة كثيرا، واهتزت شخصيتها، وهي المحامية التي لا يشق لها غبار، تهللت نتيجة الضغط النفسي كما أخبرها الطبيب. لم تعد تحتل الضجيج، ولا تطيق نزع الكابستين الصغيرتين اللتين تغلق بهما أذنيها، فلا تسمع شيئا غير ما يرتطم داخلها ولعله أكثر شراسة مما يحدث في الخارج.

من أوامر طبييها أن تلبس نظارات سوداء غامقة حتى أثناء وجودها في البيت، وأن تجدد ما في خزانتها، فتستغني عما تعودت ارتداؤه من ملابس وأحذية، وأن تمشي كل يوم طويلا.

نفيسة ترتاح لي جدا وتزورني عدة مرات في الأسبوع.. ازدادت زياراتها لي مع اشتداد محتتها. المحامية الشرسة لم تجد أحدا إلى جانبها في هذه المدينة العامرة سوى ابنة طوارق وحيدة:

- عذرا.. تجي معايا الله يخليك؟

نفيسة تتبع نصائح الطبيب النفسي.. إنه يوصيها أن تدلل نفسها.. ربما لأنه يدرك أن لا أحد يملك وقت فراغ، وأعصابا مرتاحة، كي يطبق على دلال الآخر.. إذن، فكل فرد عليه أن يهتم بنفسه وأن يدللها إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

- طبعاً سأرافقك..

بآخر ردهة يفتح باب، تطالعك روائح العطور.. إنه محل تزيين النساء.

سبق لي أن زرت محلات مثلها رفقة سعدة أخت عبده.. عندهم هناك يصرخ البذخ من كل شيء، حتى في المساحة الشاسعة التي تربض فوقها صالات التجميل، ومن عديد الآلات المختلفة الكثيرة المدهشة القادمة لتوها من العالم المتقدم المخترع..

أما القاعة هنا متواضعة ولكنها جميلة ومريحة وحميمة، تريد نفيسة وضع أظافر اصطناعية.. تريد أن تغير شيئاً، هي نصائح طبيبها. - أريد أن أشعر بشيء جديد فيّ، يا عذراً.. كرهت روحي مليت...!!

مددت يديها الشاحبتين.. على الطاولة الصغيرة التي تفصل بينها وبين المجلّة، ثم وكأنها استسلمت لراحة داخلية عندما بدأت تنظف وتقليم لها أظافرها، قبل أن تبدأ عملية وضع الكبسولات الواحدة تلو الأخرى، تبتسم نفيسة كل مرة تدس فيها يدها داخل آلة تشيف كهربائية، على شكل علبة، تصدر منها أشعة زرقاء.

استغرقت العملية أكثر من الساعة ونصف. جو من المرح يسود القاعة، الزبونات تبدين كثيرًا من الفرح كأن المكان هذا مصنع أحلامهن يتسمن وينظرن جميعهن إلى المرايا.

الفرح يعدي.. خلال طريق عودتنا، كانت نفيسة تنظر إلى أصابعها وأظافرها البيضاء الشفافة مبتسمة..

- شوفي شوفي عذراً.. شحال تغير منظر يدي..

لا بأس إذن.. كأن الأمر أدخل إلى قلبها شيئاً من السعادة.. يا لهم الأطباء النفسيون...!!

نصحها طبيبها النفسي أن تجد وقتا لها مهما كان، أن تجلس فيه وحيدة إلى نفسها، أن تسمع الموسيقى، وأن تدندن، وأن تبحث عن فسحة لترقص أثناءها، حتى وإن كانت وحيدة في غرفة، ونصحها أيضاً أن تعتني بنفسها، وتدللها، وتكلمها في المرأة، فتقول لها أشياء لطيفة، كانت تريد أن تسمعها من أحد.. «كم أنت جميلة ورائعة وطيبة وشجاعة ورقيقة وفاتنة يا نفيسة» مثلاً.

- عجائب.. ههههه.. متعة الموسيقى والرقص أضحت دواء يكتبه الطبيب مع حبة الاسبرين.. ههه.

نحن الطوارق علاقتنا طبيعية بالموسيقى والغناء والرقص والشعر وجلسات التندر والسهر والسمر، حالات لا تخلو منها أيامنا أبداً ربما لهذا لا نحتاج لأطباء نفسيين.

- هيه هي الدنيا هكذا.. المحامي يخفف على صاحب القضية، والطبيب النفسي يخفف على المحامي.. والدنيا رايحة.

نظرتُ إلى أظافري.. كانت رسومات الحناء عليها قد اضمحلت قليلاً، لم تعد ناصعة الحمرة بهجتها.. ربما حان الوقت لكي أجدد حناء يدي وقدمي.. سأستعمل مثل عادتي الحناء الورقية المدقوقة، التي يأتيني بها أحد معارفي من الصحراء.. لا غنى لي عن الحناء.. حين أضعها يتتابني نفس الشعور الذي تمتلئ به نفيسة الآن.. كيف تغيب عن بداهة طبيبها النفسي نجاعة الحناء.. الحناء جزء من أنوثة الطارقيات..

نعم.. أنوثة تينهيان، تلك الأنوثة الأسطورية الرمزية التي ورثتها نساؤنا عن ملكتنا تينهيان.. المرأة في عرفنا لا تتعلم فنون الأنوثة فهي تولد بها ومعها، تدرك أسرارها بالسليقة، تولد وهي تجمع بين الجمال والشجاعة والحكمة والقيادة، مثل ملكتنا تماماً..

أليست هي تينهيان التي، منذ ألف عام قبل الميلاد، جمعت بين الجمال وحكمة القيادة، من وضع على رأسها تاج أول ملكة على قبائل الطوارق، بعد أن توحدوا تحت ظلها الوارف، فقادتهم بحكمة على الرغم من الظروف القاسية، ولم تتردد في حمل السيف كأية فارسة تتقدم جيشها وتقوده دفاعا عن وجود قومها ووفلسفتهم في الحياة وشرفهم... إنها الأنثى تينهيان.

كدت أقول لنفيسة وهي تقلب يديها في الضوء مبتهجة بأظافرها الجديدة ونحن في طريق العودة.

- أفضل الحناء..!

- إلا أنني امتنعت.. كنت سعيدة وأنا أراها وقد دخل بعض الجبور إلى قلبها. كان صوتها يستعيد قليلا من موسيقاه للفرح. طيب نفيسة لا يعرف مدى الراحة التي يتركه سماع موسيقى آلة الإمزاد في النفس.. لا يعرف أن رقصات الطوارق على الرمل الساخن مطهرة للحياة من كل الأدران، وأن الرحيل اغتسال أبدي وولادة جديدة.

لا يعرف طيب نفيسة أن للنجوم فصولا، لا بد من استقبالها استقبالا جديرا بالنجوم حين تجيء، أو الذهاب إليها، إلى حيث تبدو أكثر وضوحا وجلاء، والنوم تحتها في العراء، حتى لتظن أنه بإمكانك أن تمد أطراف أصابعك وتلتقطها لو أردت. تتمدد تحت ضوئها الراقص، فتشعر كأنك في مهد معلق بحبال شفافة في أطراف السماء، يميل بك، يهدئك بحنو لا مثيل له حتى الصباح.. وحين تنهض مع بزوغ الضوء وقد تمرغ جسدك بمراتع النجوم ليلة كاملة دون نقصان، تشعر أن أجنحة نبئت لك، تستيقظ وقد ملأت طاقة غامضة متألثة كل ذرة منك وفيك، قبل أن تقوم مع اشتعال الشمس..

لا يعرف طبيب نفيسة هذا مع الأسف، ليس طبيب نفيسة فقط من تفوته معرفة كنوزنا، بل الجميع هنا.. لم ألتق بشخص في هاته المدينة، يعرف الطوارق وثقافتهم كما يجب.. بل يكتفون بصورة رجل ملثم يقفز بسيفه فوق الرمل مرتديا ثوبه الأزرق.

تعالوا أقول لكم.. أسكن هذا العالم الرمادي ولكنني لم أنس لحظة واحدة أنني سليلة ملكة. أنا تينيهنان أخرى، مثل أمي وجداتي وجدات جداتي، أليس من الفخر لامرأة مثلي أن تكون سليلة ملكة؟؟ نساء الطوارق نحن، جميعنا نأخذ قوتنا من روح تينيهنان الساكنة فينا.. وأنا في هذه المدينة الغريبة كلما واجهتني صعوبة، لا أفكر في الدواء ولا في الطبيب النفسي بل أنساءل:

- لو كانت تينيهنان ما الذي كانت ستفعله؟

نحن نساء الطوارق بنات تينيهنان وحفيداتها، نشعر أن أرواح الملكات تسكن فينا، وتروي عروقنا بالقوة والتحدي وبالجمال والجلال والسمو والأنفة. نحن لا نحتاج لجمعيات نسائية مثل الجمعية التي تحدثني عنها نفيسة بحزن وأسف لأنها لم تحقق شيئا ملموسا في مستوى كل الوقت والجهد اللذين أخذتهما منها، ومن رفيقاتها منذ تأسيسها. نفيسة غاضبة جدا، وتتكلم بكل جوارحها حتى تبرز العروق من جبينها، وهي تصف الحالة القاسية للنساء، تدعو وتحارب من أجل حقوقهن.

- المرأة عندنا محقورة يا عذرا.. محقورة.

لست أدري لماذا يحلو لي أن أحدث نفيسة عن المرأة الطارقية التي تولد وحولها غلالة تقيها من شر الرجال. تضحك نفيسة وتقول:

- أنتم عايشين على كوكب آخر.

لا تكاد تصدق نفيسة أن الرجل الطارقي كلما ازداد احتراماً وتقديراً للمرأة، كلما علا شأنه أكثر بين قومه، ومن ييدي منهم فظاظة تجاهها، أو ومن يمد يده عليها مهدداً أو ضارباً، فكأنه حكم على نفسه بأقصى العقاب ولا يلومن إلا نفسه لأنه سيصبح مضحكة القوم، يتبرأ الجميع منه، ويتجنبون حتى السلام عليه، ويديرون وجوههم عنه، حيثما مر وكأن به الجذام، فينبذ ويطرد، وحتى أصدقاؤه ومعارفه وأهله يتهربون من التقاء به.

تظل نفيسة فاعرة فاهاً. ليس هناك قانون ومحاكم وجلسات وقضايا كما تقصين علي كل يوم ما يجري في يومياتك.. بل هي فقط أعرافنا منذ آلاف السنين، تنبع من جوهر الإنسان وحكمته وتأمله على مهل في عمق الوقت والصمت، حين كانت سريرته أصفى ونفسه أظهر. تزداد نفيسة تعجباً ثم يقينا حين تعلم مني، وليس من تقرير أو بحث تطالعه عن الطوارق، مني أنا، الجزء الحي المتحرك، حين أروي لها أن المرأة في أعرافنا منذ بدء التاريخ، هي أغلى الكنوز، تمثل الشرف المجسد، لا تنهر، ولا تقهر، وكرامتها لا تهدر، والمساس بقيمتها إدانة لجوهر وجود الطوارق، ولتاريخهم وكيونتهم، هي الذاكرة العتيقة الحية التي لا تفوتها شاردة ولا واردة، النساء عندنا هن الحافظات الصادقات لكل تفاصيل حياتنا عبر الأيام والسنين والقرون.

- من أين لي بطارقي يتزوجني.. يا عذرا يا خيتي؟

تنهد نفيسة مبتسمة وهي لا تكف ولا تمل من النظر إلى أظافرها الجديدة المتلاثلة المصطفة كسلسلة كبان.

فرحت نفيسة حين دعوتها إلى جلسة الشاي هذا المساء، في شقة البنات زوخا ونسيمة وباية، لم تكن المرة الأولى التي تحضر فيها معنا ثم تخرج المحامية سعيدة، وقد أضافت بوجودها وحديثها

وتجربتها الكثير، تصبح الجلسة أكثر أنسا وفائدة في أمر الجد والهزل. وتزداد سعادة البنات حين أزورهن أحيانا رفقة صديقاتي ومعارفي، ربما تفيدهن معرفتهن بتجارب الآخرين في تعبيد طرقهن الصعبة والشاقة بهذه المدينة.

كم أشعر أنهن وحيدات وغربيات.. يدفعني قلبي وشعوري بالواجب أن أؤنسهن في شقتهم، أشعر بالزهو حين يجلسن حولي مقرفصات، مستعدات مثل طفلات صغيرات لسماع حديثي.. يعجبني ويملأ خاطري نخوة حين يسألن بكل ما أوتين من فضول عن تاريخ الطوارق الذي لا ينتهي الحديث عنه أبدا، وعن حياتي وأزواجي وأسفاري، ومعارفي، ومغامرتي مع تعلم اللغات والقراءة والكتابة وسباقي مع الوقت في ذلك.

يسألن عن أسرار الجمال والفتنة والغواية ويسعدن غاية السعادة بالأحاديث حول أسرار الرجال وضعفهم وقوتهم، جبروتهم وانهمائهم، والفرق بين أصنافهم العديدة وثقافتهم وشخصياتهم ونفسياتهم وتربيتهم وعاداتهم ومواقفهم المضحكة والمسلية الهازئة..

لذيذة هي الأحاديث عن الرجال وخفائهم، لذلك لا أدر أغرب ما تعلمته من قصص وحوادث لأسرده على مسامعهن، فتارة يضحكن، وأخرى تمتلئ عيونهن بالدموع.. أستعمل في كل ذلك فنون القص التي تعلمتها من مساءاتنا الطويلة حيث يسود الصمت وتتعلق نبرات أصوات الحاكيات الشاعرات واحدة بعد أخرى.

بعد أن كن يندهشن ويكدن لا يصدقن حين أشرح لهن ما يحدث في حياتنا وعلاقات الرجال بالنساء.. قالت زوخا:

- المفروض والمنطقي أن تكون الحياة هكذا..

أشعر أن شيئا ما تغير فيهن مع الأيام.. وهن يعلمن أن المجتمع

الأمومي الذي أنتمي إليه تعيش المرأة فيه وهي تكاد أن تكون مقدسة. كأنهن أصبحن أقل ضعفا وأكثر نضجا، وأكثر إقبالا على الحياة.. كل يوم يعرفن المزيد.. كل مساء يجلسن متوثبات الروح، وكلهن رغبة في الاستزادة. لم يعد يبدو لهن غريبا أن المرأة عندنا هي المدرسة الوحيدة، ومعلمة «التيفيناغ» كتابتنا الجميلة التي لولا المرأة التي تنقلها جيلا بعد جيل على الرغم من توالي القرون لأصبحت من أخبار كان. تصر «زوخا» على أن أرفع الستار على التفاصيل الدقيقة وكلما تعمقت في وصف حياة المرأة عندنا بأمانة كلما ازدادت أبصارهن بريقا عجيبا، حين يعلمن أنها الوتر الأساسي في خيمة الطوارق، هي ملقنة الكلام، وهي الشاعرة، وهي العازقة، وهي المغنية، وهي الحكيمة التي ينصت لصوتها ولأشعارها الحاملة للفلسفة والتاريخ، بصوتها الذي يخرج من أعماق أغوار التاريخ مرددا الحكم والأمثال المليئة بالدروس. كل هذا وهي تحرك الوتر الوحيد على الامزاد، المعانق لصوتها الهادئ، الرزين، الغامر أسراراً وأخباراً. تغني وتعزف إكراما وتقديرا واحتفالات بالفرسان الراجعين فوق الجمال والمهاري غانمين في تجارتهم ومنتصرين.

كل ما يخشاه رجالنا حين يعودون منهزمين، أن النساء لن يحتفلن بهم وبعودتهم الكسيرة، ولن تنصب خيمة الفرح، ولن يسمعا أغانيهن، وعزفهن، وأشعارهن، فالفارس في أخلاقنا لا يفكر بالعودة إلا منتصرا، ولا يفكر في الانتصار إلا ليكون محط وموضوع أشعار النساء وغنائهن وعزفهن ورقصهن احتفالاً به وبشجاعته وأنفته وطارقيته، صورة الرجل الطارقي تتجلى أمام أعينهن كما الفارس الأمثل بعد أن بدأت ملامحه تتوضح وتستقر في خيال كل واحدة منهن.. الرجولة المثلى.. في عرف المدن يستمد الرجل قيمة رجولته وذكرته من عناصر

خارجة عنه، المال والجاه، الرجل الأزرق كل رجولته وقوته وجماله وفتنته تنبع مما يملكه في ذاته، من كرمه، من مروءته، من ظله المنسحب بسخاء على الرمل، تحت الشمس المتلاحقة، من شجاعته وإقدامه، ومن أخلاقه العالية التي تلقنها له أمه، ومن فروسيته وبلائه الحسن في كل ما يواجه وجوده من أخطار، ومن معرفته بأسرار الصحراء.

البارحة اشترت زوخا صورة كبيرة لرجل طارقي ملثم بزيه الأزرق الغامق وهو يرقص بسيفه فوق أرضية من الرمل الذهبي قالت أنها ستعلقها في غرفتها:

كم سعدت للفكرة، كن يعلقن في غرفهن صور رجال أجانب بأجساد قوية مسكوكة العضلات يستندون إلى سيارات فخمة.. أفهمهن.. يتخيلن الفارس الأمثل ويثبتن على عرش خيالهن.. كل واحدة ترسم لها فارسا وسيما لطيفا في خيالها..

نعم يا زوخا.. سأساعدك على تعليقها.. الطارقي مثال الجمال والشجاعة والرفعة، ورجال الطوارق لا يعبدون المال مثلما صارت عقول أهل الشمال خرقاء بسببه، ثراء الطارقي عبر التاريخ ما يملك من وقت يطأ فيه رمل الصحراء، كل سلاحه التاكوبة سيفه على يسار خاصرته، وعلى يمينها خنجره المزخرف مقبضه.. عز الفارس الطارقي حين ينتصب على ظهر جواده أو على مهاريه البيض.

لا يتمسك الطارقي بشيء.. لا قيمة للأشياء دون جواهرها المكنونة فيها.. قد يكون لحجر صغير مفعول السحر لما يحمله من ثراء في المعنى.. قد يضم ذكرى مكان حبيب، يخبئه عزيزا ويمتلئ بسحره، نحن الطوارق أغنياء.. أغنياء جداً، بما نملكه في جِوانيتنا، نحن نولد أغنياء بما فينا، يولد الفارس فارسا، والحداد الذي يصهر الفضة ويصنع الحلبي ينزل من بطن أمه وهو يحن إلى صهر

المعادن وتجميل سروج الجمال ومقابض السيوف وأطراف الأساور والخلاخل، ويولد ناصب الخيام وراعي البقر والإبل وكأنه درّب على عمله قبل ولادته.. هكذا يؤثر الطارقي الحياة المنطلقة، حياته مؤثثة بما هو أعمق وأجمل وأفتن.. كل واحد يولد برغبة مجنونة تنبع من داخله للانطلاق وللرحيل ولمخاتلة الظل.. كي يصنع التفصيل الخاص به في الحياة الطارقية.

اعتقد الاستعمار الفرنسي كما تروي نساؤنا أنه كسر شوكتنا، بعد أن تسلل إلينا في صحرائنا، حاصرنا وأضعف قبائلنا، وشتتنا وألحقنا بالقرى والمدن، تخطيطاً منه كي ننصهر وننحل في طريقة الحياة التي يفرضها على الآخرين، ما زالت عازفات الإمزاد يغنين بأصواتهم الشجية في المساءات ويحكين التاريخ، عن مستعمر غاصب أتى من الشمال فقسم الصحراء، تلك البسيطة الحارة الممدودة خارج الزمن والمكان..

بكل حقد مزق أوصالها واستحدث حدوداً قلصت من حريات تنقل الطوارق، ولكنه على الرغم من كل قوته وجبروته لم يستطع أن يكسر دواخلنا أو أن يمحو جوهراً أن يبديد حقيقتنا، أو يضح في نفوسنا وأجسادنا من روحه وريحه. صحيح أنه قتل زعماءنا وشتت شملنا ولكنه لم يستطع أن يصل إلى قوتنا الداخلية ولم يفلح في تدمير اللؤلؤة العvisية على الكسر داخلنا..

رجالنا فرسان زرق.

ونساؤنا حافظات العهد.

تنتهي السهرة وقد اشتد الحوار وعلت الأصوات والضحكات والتعليقات.

حين أعود إلى شقتي أشعر بشيء يؤلم روحي، مثل شوكة تنغرز

في صدري.. كم يحزنني وضع زوخا ونسيمة وباية وبحثن المتواصل عن عمل.. دون أن أسألهن ودون أن يفصلن في ما يوجع كل واحدة منهن أشعر أنهن لسن بخير.. كأنهن خائفات من شيء ما، كأنهن يبحثن عن شيء ضائع لا يعرفنه بالضبط، كأنهن يهربن إلى خلاص يبدو مستحيلا غالب الأحيان، يؤلمني أن أرى في عيونهن الكسيرة شبه سؤال مستمر دائم:

- لماذا هي الحياة هكذا؟! أففففف.

تمرر الحاجة عذرا يدها على زجاج النافذة، ترى وجهها بلامحه المليحة يلوح بين الضوء والظل، تمرر يدها مرة أخرى وكأنها تريد أن تمسح البنايات وسطوحها العالية والصحون المقعرة المعلقة على الشرفات لالتقاط ما يمكن التقاطه من أحلام وردية. تمسح الحاجة عذرا الزجاج ببطن كفها، تريد أن تزيح كل ما يعيق بصرها عن رؤية السماء التي تستيقظ مثل وحش كاسر في خيالها، السماء الضاحكة للعبوب المستلقية العائمة في زرقتها وصفائها، ستداعب الشمس التي ستوسط بطنها بعد ساعات وكأنها سررتها المشعة الملتهبة، تداعبها وتنظر إليها بإعجاب وكبر بينما هي تدور حول الأرض، وتدبر أبصار الخلق التي تتبعها.

تأمل عذرا أن يتحرر بصرها بعيدا، أن ينسكب هناك في مجاهل الضوء، في غياهب الصحراء، صحرائها التي تحن إليها، الصحراء المتمردة رمالها، صحرائها التي ترمي لتبسط سحرها على ربع القارة الإفريقية حيث كان أجدادها الطوارق منذ آلاف السنين جزءا منها، من جنونها وصوابها، من هدأتها ويقظتها من ثبات صخورها التي تنتصب منذ أزل، غريبة الأشكال، عملاقة شاهقة، حتى لتكاد تبدو

أبدية. كانوا جزءاً من سر تحرك الرمال وهشاشة كثرانها، يعرفونها كما يعرفون كفوف أيديهم، ويقرئونها كما يقرأون حروف التيفيناغ، تتمرغ فوق حبيبات الرمل وتكلمها.

يرقصون لها بسيوفهم المسلولة اللماعة، وأجسادهم السمراء المصقولة:

- لا يشبه الصحراء سوى أجدادي، في حكمتها البليغة وفي شموخها العالي.

عذرا تبحث في هذه السماء عن سماء أخرى مغايرة تعرفها وتعرف سحرها وسرها..

إنها الساعة الخامسة صباحاً.. ليس بهم.. وما معنى الزمن دون سماء وصحراء وضوء ورحيل..

تفكر عذرا وهي تنظر إلى الساعة الحائطية، يخطو رقاصها خطوات ثابتة واثقة، كمن يذهب إلى موعد حب طال أمد انتظاره: أجدادي الطوارق لم يحتاجوا لساعة سويسرية كي يسجنوا رقاص الوقت خلف زجاجها البغيض، ويتمتعوا بالتفرج على الرقاص المسكين السجين، وهو يرقص في مشيته الأبدية، ذاهبا نحو أليفته التي يحن إليها من أمد، وكلما اقترب منها وحاول ضمها، هش الزمن عليهما بعصاه وبان البين بينهما..

أجدادي الطوارق كأن الوقت خُلِقَ من أجلهم.. ينساب تحت خطوهم.. لا يسجنهم ولا يسجنونه.. نعم إنهم يفهمون التعامل معه كما يقتضي بقوم أحرار، يلقون سراح الوقت بالرحيل، يرحلون معه ويرحل معهم، ينطلق تحت خطو جمالهم، وحين يتعب الوقت ويتأب ويريد أن ينام قليلا، يحزمونه في أمتعتهم الخفيفة الضرورية فوق

الجمال والمهاري ويسIRON.. يهددونه بأغانهم حتى ينام ويسIRON
في الرحيل الدائم المقدس.. الرحيل الفرض الأساسي في حياتهم،
التنقل من مكان لآخر في مجاهل الصحراء التي ليست مجهولة لديهم،
يذهبون فيها كل مذهب للتطهر وللتعبد بعيدا في إنسانيتهم.. الوقت
شريك الطوارق في الصحراء وفي الرحيل منذ آلاف السنين.

يصطدم جبين عذرا بزجاج النافذة المطلة على سماء المدينة:
- يحق لزوخا ولجميع بنات العالم أن يعلقن صور الطارقي على
صدورهن أو فوق أسرتهن..!

من يملك تلك العلاقة العضوية السرية مع السماء غير أجدادي
الطوارق؟ يكلمونها وتكلمهم عن الظل والضوء. من غيرهم يقرأ آثار
الخطو، ويفسر الأصوات البعيدة، وروائح الماء والشجر والمخلوقات
من مسافات مديدة..؟

من غيرهم يحدث النجوم والكواكب، فتدلهم معرفتهم بلغتها
ورموزها على الطريق وعلى تبدل الفصول..؟

من غير أجدادي يقيم الأعياد احتفالا بميلاد الأقمار الجديدة؟
من سواهم يملك بوصلة الطريق في صحراء مترامية الضياع،
لا معلم يحدها غير هسيس الرمل والصمت. بوصلة يولدون بها من
أرحام أمهاتهم معلقة في جباههم مثل عين ثالثة، يدركون بها وبدقة
متناهية موقعهم ووجهتهم، فلا يضيعون البتة في غياهب الصحراء..؟
الصحراء أهمهم الأولى.. الصحراء ظل تينهنان ملكتهم.

يلتصق خد عذرا بطرف النافذة.. تنظر إلى الشارع الذي بدأت

أحشاؤه تمتلئ قليلا قليلا بالسيارات.

كلما زدت اكتشافا لهذه المدن البائسة وسكانها الذين كأنهم مفرغون من جواهرهم، كلما اقتربت أكثر من جوهرى وخفت عليه من الضياع أو التفرغ.. فلا أبرح أتذكر من حيث أتيت، وأوقظ مكان من الجمال الساكن في روحي وذاكرتي.

أنا ابنة أمها الطارقة، حافظة أسرار الزمن وتواريخه وأحداثه وتفاصيله في أشعارها وأشعار جداتها وفي غنة صوتها، أمي التي ييوح لها الوتر الوحيد بألّة الإمزاد، التي لا توأم له على الأرض ما لا ييوح به لأحد.. كيف لا يلامسني الغرور وأنا ابنة أبيها المهاب ولد آمنوكال التي تعني بلغة التيفيناغ «سيد الوطن»، راكب المهاري البيضاء العالية، أبي الطارقي، الرجل الأزرق، المثلثم، الممتدة قامته في عليائها، نحن لجزء منها يدعى الشمس، وأنا بالوراثة وحقيقة الدم سيدة الصحراء. أبا عن جد، شمسا عن شمس، ولا أحد يستطيع أن يطفئ شعلة العشق الدائمة بيننا وبين صحرائنا.. إنهم يريدون اغتصابها منا، نحن أجزاءها وأسيادها وعبيدها وخدامها وأبنائها، سنهزمهم بالصبر وقوة العشق، لا سلاح أقوى وأمضى من العشق، وعشقنا للصحراء لا حدود له.

كم علي أن أردد على مسمع زوخا وباية ونسيمة، بأن الصحراء هي قلب البلد وهي عاصمته الحقيقية وهي بخيراتها السخية يمكنها أن تعيل عائلة البلاد الكبيرة الواسعة.

جن الاستعمار بها واستغل خيراتها، كما جن الذين جاؤوا بعده، وأبدوا جشعا رهيبا، فباعوا كنوزها الباطنة منها والظاهرة، وتجروا أن يضعوا جمالها تحت تصرف غرباء يصيدون طيورها النادرة، وحيواناتها الرشيقة المدهشة، قد تكون طبيعة ثانية عند هؤلاء الحكام، فهم يمدون

أيديهم البغيضة ليستولوا على ما ليس لهم ثم يتصرفون فيه.
 الصحراء الكبيرة لنا منذ أن خلقت، خلقت لنا نحن الطوارق،
 لأننا نحب كل حبة رمل فيها، لم نأت لنسرقها، لغتصبها ثم نخفي..
 لا.. الصحراء أنا وأنا وشرفنا. نحترم سكونها وصمتها وغضبها ورضاها،
 ونحفظ أسرار آثارها الممتدة في عمق التاريخ.. إنها نحن، وإننا هي،
 نمتزج مثل عاشقين ونفنى في حرارتينا، هكذا تردد جداتي في أغنياتهن
 العتيقة، وأمثالهن التي تعود إلى الأزمنة البعيدة.. أمثالهن الجميلة
 تصور تعلق الطارقي بالصحراء، شبيه عناق محبوم بين عاشقين، نعم
 الطارقي في حالة شبق دائمة مع الصحراء.

ستظل لنا حتى وإن وفد هؤلاء الوافدون، من مستعمرين من وراء
 البحر، أو من صيادين من دول ثرية، أغنياء، لاهين، تدللهم جهات عليا
 في السلطة وتسهل عليهم استغلالها والعبث بها، فتجدهم يحللون على
 أنفسهم كسر هدوء مخلوقات الصحراء وسكيتهم وأمانهم وأمنهم.
 كيف لهؤلاء وأولئك أن يدسوا أنوفهم بين عاشقين محبومين
 أبدين، بين الطارقي ومحبوبته الصحراء.

تشهد أغاني الامزاد فتمتلئ أنينا وألما من هؤلاء الدخلاء
 المدججين بالسلاح وتنعتهم بـ «السراق»، جاؤوا ليفتحوا بطن
 الصحراء واستغلال جمالها ومالها يهربون ما استطاعوه خلف البحار،
 ثم يتركونها مرمية عارية. إنهم لا يحبونها، جاؤوا فقط لاغتصابها
 وسرقتها، لكن الطارقي سيدافع، لا غرو، عن صحرائه..

يتوهج وجه عذرا، وتشتد قبضتها، وتكز على أسنانها، وتتلاحق
 أنفاسها، تمر في خيالها جحافل السيارات الفخمة، تجرح سكون
 الرمال، يقلها رجال غرباء يتكلمون لهجة عربية جافة، إنهم أثرياء
 عرب تلوح عقالاتهم من بعيد، وقمصانهم البيضاء ويلوحون بصقورهم

التي تنقض على فرائسها من طيور الجبارى النادرة، وينظرون بتعال، يبعدون من في طريقهم وكأنهم أصحاب المكان، فقط لأنهم يستمدون قوتهم وجبروتهم من ثرائهم ومن علاقاتهم وصدقاتهم بقصر الحاكم الأوحده.. كيف له أن يبيع شرف الصحراء على مرأى من أهلها؟

يمر في مخيلة عذرا عبده، طليقها، ذاك الخليجي الوسيم الذي جاء بدوره ليصطاد، فرمت بشباكها فأوقعت به، مثلما يوقع هو وشركاؤه بغزالات الصحراء وطيورها ومخلوقاتها. حين انتقلت معه إلى العاصمة لمراسيم الزواج قبل أن ترافقه إلى بلده، اكتشفت ممتلكاته الكثيرة، وزياراته السهلة السالكة المتكررة للحاكم الأوحده في قصره، وعلاقاته المتينة به وبأهل بلاطه.. كان يفضي لها بما لا يقوله لغيرها وكأنه يتطهر من ذنب كبير ما:

- آه يا عذرا بلدكم شاسع وغني وشعبكم فقير.

لم يكن عبده العاشق سيئ السريرة أفضى لها بما في قلبه:

- لو كنت مكان حاكمكم الأوحده لما فعلت مثله على الرغم

من أنه صديقي.

لم تنس عذرا حديثه المتواصل وهو يسر لها ما في صدره، كانا يقلان طائرته الخاصة إلى العاصمة، حيث أراد عبده أن يحتفل بزفافهما هناك.

عند وصولهما وجدا في انتظارهما بالمطار سيارات رسمية ومستقبلين كثر.

كم استغربت عذرا من كل ذلك الاحتفاء بعبده، وكأنه أمير هنا أيضاً، وليس في بلاده فقط.. لكنه لم يكن يأبه لشيء حوله كان مسكونا بها وحدها، سأحتفل بك يا عذرا كما يجب وبما تستحقين. كان الطريق طويلا.. سيارتان ذات دفع رباعي يتبعان سيارتهما..

عذرا مندهشة أمام مشاهد تدرج ألوان الأخضر المختلفة تتسلق كل شيء، الحشائش والأشجار العالية التي لا تغيب عن النظر، حيشما مرت العين إلا ومرت عليها. كانت من خلال لباسها الطارقي الجديد لا تتأمل بل تشاهد بدهشة هذا العالم المخضر وهي الآتية من الكثبان والرمال الممتدة في تدرج الاصفرار. لم تكن تتخيل أن الشمال بمثل هذا الجمال على الرغم من الكثير الذي سمعت عنه..

حين ودعها أهلها بالدموع الحارة، لم يكونوا يتخيلون أن ابنتهم عذرا ستقضي ليلة زفافها في قصر من أجمل القصور وأبهائها، واحد من قصور الحاكم الأوحده. قصر معلق في أعالي غابات الشريعة التي لا تبرحها الثلوج وإن اختلفت الفصول.

كان الطريق طويلا إلى القصر البديع الذي لا يأويه غير زوار الحاكم الأوحده الخاصين المقربين من أصحاب الحظوة، كم كان عبده لطيفا ومتحرقا للاختلاء بعذرا:

- ليلة زفافك ستكون ليلة ملوك يا عذرا..

كانت السيارة تتسلق المرتفعات الخضراء، بينما تبدو من تحتها الوديان الجارية وغير الجارية، صخور تتعلق بالأشجار وأشجار تشبث بصخور عملاقة كي لا تسقط في الهاويتين السحيقتين اللتين تثيران الدوخة جانبي الطريق. وكلما اقترب الموكب من القصر كان البرد يشتد، فتعلو بشرة عذرا قشعريرة مفاجئة.

بدت الطريق بيضاء ناصعة.

فتحت عذرا عينها على آخرها، وهي تنظر إلى هذه المادة البيضاء التي تغطي كل شيء، تملأ الطريق والمرتفعات المحيطة بها، وتميد تحتها أطراف أغصان الأشجار اللامتناهية العلو والامتداد في عنان السماء..

لم تكن عذرا تدري ما يحدث لها.. كان يمكن لشيء من الخوف أن يتسلل إلى قلبها لو لم تكن تدرك غرام عبده بها، وأن أمله الوحيد الذي يصبو إليه اللحظة أن يجعلها سعيدة وأن يبهرها ويقرب من قلبها، وأن يقوم بكل ما أوتي من قدرة لضمان سلامتها.. لو لم تكن مقتنعة بذلك لخافت.. لخافت من مصير ينتظرها قد يكون مجهولا. فكل ما حولها جديد ومبهر ومخيف.

- أتدرين يا عذرا، أنا أيضاً مثلك أبهرني جمال مرتفعات الشريعة حين أتيت هنا لأول مرة.

لا يوجد هذا الجمال إلا في بلادك يا عذرا.. في يوم واحد يقدر الانسان أن يعبر الفصول من الصيف في الصحراء إلى عز البرد والثلج في جبال الشريعة بالشمال.. بلادكم جنة. قالها ضاحكا.

وضع عبده غطاء سميكا حول كتفي عذرا، التي تابى أن تغلق النافذة، دون أن يمتنع من النظر إلى وجهها زادته بهجة الاكتشاف جمالا، وهي تخرج رأسها بدهشة من نافذة السيارة الفخمة العالية الى هذا العالم البهيج الذي لم تره في حياتها.

سقطت دمعتان من عيني عذرا.. دمعتا حنين أم دمعتا سعادة؟؟ من أين لعبده كل هذا النفوذ ليقيم ليلته الأولى مع عروسه في قصر رسمي؟ ثم هل هي المرة الأولى التي فيها يستعمله للغرض.. هي أسئلة طردتها عذرا من رأسها كي لا تفسد عليها فرحة الليلة الأولى، كم كان يبدو سعيدا والموكب متلهفا لاحتضانها.. ولكن ليس في أي مكان بل في قصر..

يقول عبده.. إنه قصر أجمل من قصورهم هناك.

لو لم تتوقف السيارة أمام مدخل تلقه الأشجار، لظنت عذرا أن

الموكب الذي يزداد صعودا يفتح طريقه نحو السماء لا محالة.
 كأنها غابة مجهولة لم يلجها أحد بعد، تقدمت السيارة ذات
 الدفع الرباعي في مساحات خضراء، يتخلل اخضرارها العنيد بياض
 الثلج، ويطل من بين جنباتها.
 بدا باب القصر عملاقا من خشب أحمر داكن، يعلوه القرميد الذي
 يمتد على شكل قبة. أذن عبده لمرافقيه بالانصراف بعد أن أنزلوا
 الأمتعة.

حمل عورسه بين ذراعيه عابرا مدرج القصر، كانت عذرا تبتسم
 دون أن يغيب عن عينيها أي جزء من تفاصيل ما حولها. وضعها برفق
 على أريكة قرب مدفأة ضخمة، سل فردتي نعلها الصيفي من قدميها،
 وفركهما بيديه كي تصل إليهما الحرارة.. كانت عذرا تنظر إلى كل
 شيء حولها باندهاش بينما لم يكن عبده ينظر سوى إلى وجهها..
 اكتشفت العروس أن القصر لا يرد فيه كل شيء مرتب، وكأن جنودا
 من الخدم يدورون به في الخفاء. لم تلمح غير اثنتين منهما.
 - مشان عيونتش عذرا كلش يهون.

وحين سأله قال إنهما خادماتان استقدمتا من بلده خصيصا
 ليليتها ومن الآن ستصبحان تحت تصرفها. أشارت واحدة منهما إلى
 الحمام الساخن ثم إلى المائدة العامرة المنبسطة في الركن بها ما لذ
 من الطعام. عذرا منسابة نحو رغبتها في الاكتشاف وإشباع فضولها
 الذي حركه زلزال المباغته لعالم جديد مختلف.
 إنها بقصر.. تينيينان.. تماما.. الملكة.

سألت عذرا عريسها عن هؤلاء الأشخاص الذين يظهرون في
 لوحات زيتية ضخمة:
 - شكون هادوك.

رد عبده بارتباك.

- لا أعرف أسماءهم عذراء، الذي أعرفه عنهم أنهم شخصيات قديمة من التاريخ.. تاريخ بلدكم يعني.

تدور عذرا بخطى بطيئة تارة، ومسرعة تارة أخرى وهي تجوب أركان القصر تحت نظرات عيون عبده اللماعة المبتسمة المرتجفة مثل زوارق فوق موج قلق، يزداد شغفه بهذه المرأة التي لم تستطع أخرى أن تفعل بأعصابه كما تفعل، وتستثير جميع الرغبات التي ولد بها، أيقظت حواسا رافقته وظلت في حالة كمون دفعة واحدة منذ أن خلق في رحم أمه..

لم يعرف امرأة بهذا السطو وهذا الوجود المتعاضم يتلغ كينونته بكاملها.. ملكة طارقة.

تينهينان أصبحت ملكة الثلج إذن في أعالي جبال الشريعة.. تطوف عذرا بهدوء وتوادة قصر الحاكم الأوحده.. تحت بهجة نظرات عبده وضعفه وشغفه.

تينهينان بمرتفعات الشريعة الباردة، العائمة في غلالة الثلج، الساكنة في الذاكرة الحية بهدوء ملفوم.. هدوء ناطق بصوت جهوري لا مثيل له..

تينهينان الملكة.. أطعمها عريسها على مهل، بملقعة صغيرة وهو يتأمل شفيتها عن قرب.. شفيتها اللتين طالما اشتهاهما.

ما الذي دهاه هذا الأمير أن يختار لليلة زفافه قصر الحاكم الأوحده بمرتفعات الشريعة الباردة وسط الثلج..

الآن الصخر يتحت من الصهد والقر، وقلب العاشق أيضا.. وأكثر..؟ أم لعلها جينات أمه السويدية، سليلة الثلج والأشهر الستة الباردة المتتالية الغارقة في مزيج من سواد الظلمة وبياض الثلج.

لعله يروم من وراء برد وثلج مرتفعات الشريعة إطفاء ناره المتأججة من هذه الصحراوية التي تتوالد فيها الشمس فتحرق منه الأخضر واليابس، هذه الآتية من أعماق التاريخ مثل أغنية، كلما تعتقت في الحناجر كلما صارت مثل خمرة ثمينة.. هل هي سليلة تينهيان أم هي تينهيان نفسها؟

تينهيان الملكة.. سقاها عريسها الآتي من مملكة أخرى، حتى ثملت، كان يملأ كأسها من خمرة عينيه الرقراقه مرتجفا .. ثملت الملكة الصحراوية.. فانشئت بين ذراعي أميرها القادم من مملكة في الخليج العربي، مالت عليه، فأخذها على مهل كما يليق بمملكة.

قليلا قليلا، الخطوة القصيرة، المتأقلة، الأنيقة، اللذيذة، المتلعممة، المتعثرة. الخطوة التي يسندها طول صبره وعرض صدره، الخطوة المائلة، الخطوة القاتلة المنتظرة.

على مهل، يدخلها غرفة النوم التي تراقصت رؤوس الشموع بها، من كل حجم ولون وطيب. غرفة كأنها سرقت للحظة من كتاب ألف ليلة وليلة.. تميد الستائر شديدة الحمرة على الزرابي والطنافس المطرزة والمزركشة.

يدخلان الغرفة الواسعة المضاءة بالأحمر الخافت.. كل شيء يعوم في ظلال حمراء غامقة مريحة للقلب والعين والروح.. يدخلانها وكأنهما يتزلقان في مسبح من عالم عبد القاهر المصمودي للعود والعنبر والعطور.

- عذرا عذرا.

لم يجد الأمير الخليجي كلمة أخرى أبلغ.. مفتونا يردد بهمس. تناثرت اللغة.. عجزت اللغة.. لا نعت بها ولا صفة ولا مرادف..

كان يبحث عن لغة لاتعذر عليها أوصافها.. كل اللغة أصبحت عذرا.
به إصرار على إدراك سر جبروت هذه المرأة..

من أين لها هذا السيف بليغ الحدة الذي يسمع صليله في كل
حركة منها، من أين تأتي بكل هاته الغواية التي تلعب برأسه وفؤاده،
فيشعر بدوخة خفيفة لذيدة كلما نظرت إليه أو ابتسمت.. ويشقه برق
مكهرب يصعد عموده الفقري كلما مست يدها يده..

لم يعرف عبده هذا الشعور من قبل مع الإناث قط، وهو الأمير
بن الأمراء، قاهر العذارى والنساء.. إنه يكتشف ذوق الذل، يستمرته
لأول مرة على يدي هذه المرأة النازلة من العصر الأموي بكل حزمها
وسحريتها.. من أين لها هذا الجلال الساكن فيها والمحيط بها، كأنه
غلالة سحرية غير مرئية.. كلما مد ذراعيه نحوها فكأنهما تمران بحاجز
قطني أوحيري ينغمسان يذوبان في طريقهما نحوها، فلا يدري إن
كانتا ستعودان إليه سالميتين كما كانتا، جزءا من جسده أم ستنفصلان
عنه وانقضى الأمر.. ثم إنه لا يعلم، هل فعلا لامست يده شيئا منها،
أم هو مجرد حلم يقظة..

منذ رقصتها بحفلة طلاقها الملعونة تلك، لم يعرف الأمير
الخليجي الوسيم راحته ولا كيف يجمع شتات نفسه، كأنه ضيع فجأة
بوصلته في الصحراء وضاع، ونسي من يكون، نسي ما يريده من
وجوده على الأرض وما لا يريد. منذ أن رآها ذلك اليوم، وهو يردد
لمن حوله بأن قدر وجوده على الأرض، وحياته ومرماها، أن يأتي
إلى هذا البلد، بلد صديقه الحاكم الأوحده وأن يصيد في الصحراء
وأن يلتقي عذرا..

كل وجود العاشق كثف في تلك النظرة، ولأن لكل حياة إنسان
نقطة ارتكاز، فنقطة ارتكاز حياته هي عذرا، ورقصتها الغاوية تلك..

ولا شيء له قيمة ومعنى بعدهما.

بدا له وكأن القصر المعلق في أعالي الشريعة، المندس وسط الخضرة المغموسة في البياض، قد انفصل عن الأرض، ثم علا مبتعدا في الفضاء، تاركا أشجار الصنوبر تحته في مرتفعات الشريعة، بالكاد تُرى..

وهو الآن يطير به وبعذرا إلى حيث لا يدري.. ثم لا يهم أين سيطير القصر ما دامت عذرا معه..

لم يبرحها نظره، كان يعد عليها لفتاتها، وحركاتها، وأنفاسها، بينما كانت منهمكة في التمعن في ما حولها، تكتشف قصر الحاكم الأعظم بفضول ذكي فطن، ومن حين لآخر تلتفت إليه، فتطرح أسئلتها عليه، فيحار الإجابة، ليس لأنه لا يعلم، ولا يعرف، بل لأنه لم يكن يستطيع التركيز، كان جسده فريسة موجات تهزه، لا يعرف كيف يصنفها لم يعرفها من قبل، تعبر ما بين صدره وظهره.

- عذرا عذرا عذرا..

كان سعيدا بها..

- عذرا عذرا عذرا..

هامسا يستبح باسمها وعلى حبال صوته، يصير اسمها سنفونية مدوخة

جلست متعبة على طرف السرير فاقترب.. كثيرا اقترب.. كانت أصابعه ترتجف.. فك الرداء الصحراوي الأنيق عن كتفها فانزلق الثوب قليلا قليلا..

تصبب عرقه:

- عذرا عذرا عذرا..

متقطع الأنفاس لا يعرف على أي وتر يبدأ عزفه.

كان مجمر البخور يقطع هنا في ركن بعيد، وكان ورد الآنية
قرب السرير، ترقص أرجله في الماء، يأبى أن ينام، وكان الثلج يذوب
فوق القرميد، وفوق شفاه أشجار الصنوبر، بأعالي الشريعة.

باب عثمان بالي

كم من الأسرار.. تحفظ الستائر المندلقة ألسنها..

ألقت عذرا ذراعها جانبا حين استفاقت وداعب وجهها نور الصباح، فانتفض حرير أغطية السرير حولها ببهجة وخفة ومرح.
- أين أنا؟؟

.. انتظرت لحظة.. لحظات كي يصفو ماء الذاكرة الذي بدا مكدرا، أعادت دفن رأسها الصغير بين الوسائد اللينة.. وسقطت دمعتان ملتهبتان حارقتان مزقتا ممريهما في عمق محجريها، كانت تشعر بهما تملآن عينيها ثم تتعرنان برموشها..

إيه يا عذرا.. أضحت بعيدة أرضك.. أضحوا بعيدين أهلك، لست في صحرائك، أتراك تقدرين على الفطام منها أم لا؟ كيف يمكن لك ذلك؟ وهذا الوجع يطوح بك كغزالة أضاعت قطيعها، فانبرت تجري في كل اتجاه، رافعة رأسها عليها تلمح غزالا واحدا من فصيلتها.

آه يا عذرا يا ابنة الطوارق!

هل خنت نفسك واهلك؟

تترائي لخيالها بتتا صغيرة تعدو على الرمل حافية، تغويها لعبة العروسة فتصلب عودين من قصب عرجون النخل، تحزمهما بالخيط،

ثم تصنع الرأس، ثم الضفائر. وبالكحل ترسم العينين الواسعتين، وبقية الملامح، ثم تلبسها بقايا القطع الباقية في صندوق أمها من قص الأثواب اللماعة المذهبة والفضية، كانت تلك عروستها..

عذرا العروس، تقفز إلى خيالها عذرا الصغيرة، وهي تربط جوادها عند باب الخيمة، وتوصي أمها أن تسقيه وتطعمه، دون أن تشك لحظة واحدة أنه مجرد عود طويل من القصب.. تجري فوقه، تجره بين فخذيهما، وتأمرة أن يسرع أكثر، وهي تتأمل بكبرياء أثرهما المرسوم، الذي يخلفانه فوق الرمل، كأبي أثر يخلفه على الرمال مرور فارسة حقيقية فوق جواد أصيل.

نعم أنا عذرا الفارسة الأصيلة، سأظل عذرا ابنة الطوارق أبناء السماء المفتوحة، حاملة صهيل دمهم، أهلها الذين لن يغيبوا ولن ينتهوا.. من قال إننا انقرضنا وانقرضت ثقافتنا فقد كذب.. لن انقرض إلا إذا انقرض الرمل أو انقرضت الشمس المتتالية بسخاء كل يوم. أهلي باقون على الرغم من المحن، لم تلن مقاومتهم للدخيل الذي جاء يهدد وجودهم، لم تهدأ حروبهم الطاحنة ضده، واجهوه بما أوتوا من قوة وشرف، قاوموه على الرغم من معرفتهم بالقوة الجبارة التي كانت لديه، غير متكافئة مع ما يملكونه من أسلحة بسيطة، إلا أن الرجل الأزرق، العاشق للحرية ولصحرائه التي هي كل شرفه، لم يستهن بما لديه، وقاوم حتى افتك إعجاب خصمه نفسه الذي أبدى بمرارة، دهشته بهذا الرجل الطارقي الشجاع المفاخر.

حورب قومي وسجنوا وهجروا، وحاول هؤلاء الوافدون المستعمرون بمكر أن يدسوا الفرقة والفتن بين القبائل، لكن دون جدوى. جُوع قومي، وردمت آبارهم، وقتلت جمالهم وأبقارهم

وأغنامهم، ولكن لم تكلل جهود عدونا بالنجاح في تدميرنا، والقضاء على تقاليد حياتنا، وفلسفة وجودنا، وحريتنا في الرحيل والتنقل وبدونهما لا يدخل في رثائنا الهواء، كم مرة حاصروا قبائلنا وأجبروها على الانسحاب إلى أطراف الحواضر، كي تسهل عليه مراقبتها.. والقضاء على وجودها.

تاريخنا مليء بالفخر والزهو ومليء أيضاً بالمآسي، جيلا عن جيل يتنقل تاريخنا على ألسنة النساء. تلفتت عذرا حولها وهي تتأمل زخرفة سقف الغرفة في هذا القصر الذي يعود بناؤه إلى الاحتلال كما أخبرها عبده، عبده الذي يبدو شغوفا بالتاريخ وبقراءته وسرده.

إن كان شغوفا به فأنا التاريخ.. التاريخ يسكنني.

الطارقيات ينقلن التاريخ بطريقتهن..

تاريخنا لا نخشى عليه النسيان، لأنه يهدأ بأرحام النساء، في صحراء ممتدة سماؤها، ولا أسلاك شائكة تستطيع فصل فضائها الممتد بحرية وجنون.. فلا حدود ولا أنفاق فاصلة، ولا أسلاك شائكة، فإن المرأة مالكة الخيمة وسيدتها.. الخيمة المكان المستقر والمتحرك في الوقت نفسه، المكان الذي يشهد ما يشهده وسط اللامكان، هو المكان الوحيد الذي يملك سقفا.. تملكه الطارقيات الحافظات للعهد.

تلفتت عذرا فإذا الضوء يسقط بقوة على لوحة جميلة (نساء الجزائر..)، عليها صورة نساء جميلات أنيقات جالسات وكأنهن يتجاذبن أطراف الحديث، شعرت بالحنين يتحرك في صدرها، قفزت إلى مخيلتها قعدات «آحال» جلسات سمر وسهر من أجل الحديث والموسيقى والشعر والقصص.

جلسات «آحال» مثل كتاب كبير ضخم مفتوح، ولكن لا تستطيع

قراءته وتأويل معانيه وسرد أحداثه بكل أمانة وفنية سوى الطارقيات لأنهن وحدهن دون الرجال من تمتلكن الخيمة، المكان الوحيد المستقر في اللامكان، المتغير المتحول على دوام الرحيل، المكان الوحيد في الدنيا الذي قد يطوى ويحمل على ظهر جمل، دون أن يفقد ممتلكاته الثمينة، المكان الوحيد الذي لا تضيع رمزيته وبهاؤه. حين يعاد إنزاله إلى الأرض، وتنصب أوتاده من جديد، ويستقيم مزيجا مضفورا من الصوف والقطن، وبعض الزينة من العقيق، وبمجرد أن تمتلئ رثات الخيمة بالهواء، حتى يصبح عالما قائما ساحرا، كاملا، عامرا، مليئا بأسراره التي لم تضيعها المسافات الممتدة في المد والامتداد.

تعود الطارقيات لضبط التاريخ على إيقاع آلاتهن الموسيقية، وأصواتهن وحركاتهن البطيئة المدروسة، المرسومة بالجمال، ويرددن أشعارهن فيعزفن يغنين ويرقصن ويعلمن ويحكين وينقلن الأخبار والأشعار والأحداث والتاريخ، ولأنهن يدركن أن التاريخ ليس عملية نقل باردة، لذلك فهن يحولن مجرياته إلى حكم، وفلسفة حياة، تتناقلها أجيال الطوارق.

تستوي عذرا على السرير الفخم، تلف أطرافها بأغطية ناعمة بملمس الحرير، تنتبه إلى كتب مرصوفة جانب السرير، أغلفتها مكتوبة بخط غريب، لعل الفرنسيين تركوها هنا، أو أنها لمالكي القصر من الحكام الجدد.

تهز عذرا كتفيها العاريتين تقول بفخر يكاد يشبه الكبر:

- أُمي علمتني كتابة التيفيناغ.

تجلس عذرا وسط السرير الواسع، وكأنها في صحراء مفتوحة

على الصمت، ثم بأصبعها تخط فوق الأغطية البديعة الرخوة، وكأنها تدس أصبعها المحنى في رمل حار، ثم ترسم حروفا متناسقة وتردد:

- تيفيناغ

وكان شعبا كاملا يردد وراءها:

- تيفيناغ

ترسم أمي على الرمل حروف التيفيناغ، وأجلس بين يديها أردد بعدها بعناية واهتمام، وبصري لا ييروح الحروف المنصهرة في قلب الرمل الملهب، مثل فضة مصهورة سائلة ذائبة.. ترفع أمي جبينها سعيدة بي وبسرعة حفطي، فتحضني بحنان وتقبلني معتزة فخورة.

- آه بنتي عذرا.. يا زينة الطارقيات.

كل الأمهات الطارقيات يدرسن أبناءهن، هن المدرسة، والمعلم والمدير، والحارس العام، والمفتش، ووزارة التعليم.

الأمهات الطارقيات يكتبن على سبورة الأرض، من رمل صاف رائق مثل ذهب ذائب. لا يليق بتعلم التيفيناغ غير سبورة من الذهب المذوب..

- من قال إن ما يكتب على الرمل يمحي..؟

رغم العواصف الرملية، وتحرك الكثبان، وتغير التضاريس، تظل كتابة التيفيناغ التي تعلمه الطارقيات لأبنائهن واقفة ضد النسيان، منتصبة حية ناطقة..

الصحراء مدرسة كبرى يا ناس، والرمل لوحة من ذهب، والطوارق تلاميذها النجباء الأبديون.

لم يتببه عبده إلى الزوايع وإلى العجاج المتصاعد حول عذرا، وتلك العواصف الرملية الهوجاء، تهز الغرفة وتلعب بالستائر وتهز كل

شيء بعنف. جلس مبتسما بصمت على طرف السرير الفاخر، بهدوء المنتصر، نظر في أعماق عينيها عله يجد اعترافا بقدرته على إدهاشها وهو يزفها إليه في هذا القصر العظيم، إلا أنه لم ير سوى خطوط سر عميق مبهم، يزيدا فتنة.

ضاحكا بشوش الملامح يأخذ يدها بين يديه وكأنه يملك العالم.
- عذرا عذرا عذرا..

أحيانا أشعر بأنني خنت صحرائي وأحيانا أخرى أتلمس منبع قوة في داخلي تقول لي إنني النبى التي ستعيد للطوارق مجدهم وتخبرني انهم ليسوا بخيرو يحتاجون إلى نسايمهم.

ولن أسمى عذرا سلية تينينان إن أنا لم أفعل.
ليس مجرد حلم ذاك الذي يراودني..

سأعود وأقوم بمفاعله ملكتنا تينينان.. أجمع قوانا وأسوق الطوارق إلى تاريخهم. وأجعل من لغتنا «تماشاق» أو تمعشق.. لافرق، ذات الموسيقى الفاتنة في مصاف اللغات الأخرى، سيحبها من سيعرفها. تعلمت اللغات فأحييتها.. أحن الآن إلى الكلام بتماشاق لغة الطوارق، أشتاق أن حاور بها أحدا، وتمتلئ رثي بنطقها ولذة انسيابها مثل حلاوة تمر على لساني، فأرتوي برقها وشفافية عباراتها المنسكبة في حلق الهواء.

- طال زمن الغياب وصمت «تماشاق» داخلك يا عذرا..

تشعر عذرا بالاختناق كلما طال بها الأمد دون أن تعبر حروف «تماشاق» رثيها، وحلقها، ومخارج حروفها، فلا تجد بدا من الحيلة تخرج الطارقة ريشة نعام من مخبئها، رافقتها في رحلتها، محفوظة مغروسة في جسم من الجلد المطرز بخرز أزرق، كانت

هدية من زوجها الأول، لم تدرك كيف استطاعت أن تظل سالمة منتصبة بكامل ألقها، وكأنها على أهبة الكلام، والنطق، لن تنطق بغير «تماشاق» ريشة النعام تلك لم تتعلم لغة أخرى، لا تعرف ولا تحسن لغة غير لغة الطوارق.

تجلس عذرا أرضا، تضعها قبالتها، تغمض عينيها، تربع رجلها وكأنها جالسة تحت خيمة، تزيد الروائح وعبور الصحراء التي تملأ الشقة شعورها بالانفلات، والابتعاد، بالسفر الممدد على جسد الجغرافيا، وعلى الرمل الحار، بين هسيس الصمت وهمس الصهد، كأن أوتاد الخيمة تسمع طقطقاتها المحببة إليها حينما تهب ريح خفيفة، تنشي بين أذرع هواء خجول، فتتحرك خفيفا خفيفا أطراف ثوب الخيمة الثقيل، المصنوع من مزيج الصوف والوبر المضفوريين بعناية وذوق، تنبس بخشخشة خافتة..

يستقيم الخيال، تشعر عذرا وكأنها تحت خيمتها في صحرائها، تنظر إليها عيون جلسائها بإعجاب، وهي تتلو أشعارها. أشعارها لا تليق بها غير لغة «تماشاق».

كانما تراهم، يتابعون شفيتها بكل حرف يخرج ساخنا مضيفا من فمها، وكأنه قطعة فضة تسكب في قوالب لتشكيل الحلبي ذاتبة ملتفة لتأخذ شكلها النهائي حالما تبرد.. الكلمات في قصيدة عذرا تسقط مثل الجمر، تصهر أشكالها فتوصل رموزها ومعانيها.

نعم.. كأنها ترى جلساءها، تُضاء أعينهم وصدورهم، وكأنهم يحبسون أنفاسهم خوفا من أن تستيقظ فلا تكمل القصيدة.. قصيدتها التي تحكي أهوال ما يحدث في شمال الأرض، أهوال المدن وتفاصيل حياة سكانها وهمومهم وأحزانهم وأفراحهم القليلة، حياتهم التي تشبه الصناديق المغلقة، تفشي لهم أسرارها عن بشر مثلهم، لكنهم

يختلفون كثيرا. فيعجبون ويتعجبون.. القصيدة لم يسمعوها مثلها منذ آلاف السنين..

وكانها تستيقظ عند نهاية القصيدة، تعيد عذرا ريشة النعام إلى مسكنها الجلدي بعناية، قبل أن تمسح قطرات بللتها.. لم تتأكد الحاجة عذرا إن كانت دموع ريشة النعام التي تبكي كلما غنت لها أو قرأت لها أشعارها، أم أن «تماشاق» لغتها الطارقية، تسيل في صدرها وحلقها وفمها مثل الماء الزلال، فتنهمر من سماء الخيال فوق كل شيء حولها.

شقة الحاجة عذرا، مثل عرين أسد أو شرنقة فراشة، محكمة الإغلاق، تزهو بأسرارها وأشيائها الخاصة الطاعنة في الحميمية، لا يدخلها أحدا، تظل عالمها، مخبأها، وملجأها، ومهربها، قطعة من الهناك، تريده أن يظل نقيًا كرمل الصحراء، أن تبقى رائحته وروح العطر به صافية مجنحة، لا يعيقها عائق ولا يشوبها شائب.

عالم حين تدخل إليه وتغلق بابه خلفها، فكانما قطعت برزخا يفصلها عن عوالم هذه المدينة المكتظة بكل شيء، الفارغة من كل شيء، مدينة واسعة وضيقة في الوقت نفسه، ينخر أهلها النفاق والتمظهر، والكذب، والحيلة، والظلم، وأشياء أخرى تبحث لها عذرا عن نعوت تليق بها.

تلج الحاجة عذرا شقتها، تفقد الشعور بالعالم الخارجي، تعود إلى صفاتها وسكينتها، إلى صمت الصحراء، تتأمل حليها الكثيرة التي حرصت على أن ترافق رحلتها وتظل معها رفيقة وشاهدة على أنها لم تبتعد، خلخالها.. خلخالها الذي سعدت حين تمكنت منه أخيرا.. لا تمن له سوى، قطرات أول حيض، كعادة الطارقيات..

كم ظلت تنظر بعين الغيرة لسيقان البنات، وهن يلبسن الخلاخيل

التي تحدث ريننا محببا مجنونا، وكأنه نداء عاشق ملهوف.
كانت عذرا تنتظر بفارغ الصبر أن تلبس خلخالها الذي ينتظرها.
أخرجته أمها من صندوقها الخشبي القديم ذي اللون العنبري ووضعت
في صندوق عذرا ذي اللون الأحمر، وهي توصيها ألا تقربه، ولا
تلبسه، ولا تمسه، إلا بعد أن ترى قطرات دم تسيل منها، وإلا سيحصل
لها مكروه.. والمكروه هذا ليس سوى نفور الرجال منها.

تستمع عذرا لنصائح أمها بكل الجوارح، وعلى الرغم من أن
طاعتها في ذلك أمر صعب، إلا أنه من الجنون عدم الإذعان لما
أملته.. لا شيء أقسى من أن يحل بها هذا المكروه.. نفور الرجال.
انتظرت بفارغ الصبر تلك القطرات الحمراء القانية، كما وصفتها
لها أمها على انفراد بكل دقة. منذئذ والقلق يلعب بنفس عذرا ويقض
أحيانا أحلامها اللذيذة. كلما شعرت بشيء يتسلل من جسدها تهرع
لمخبئتها تتأكد، ولكنها سرعان تقفل راجعة تتأفف وتأسف عندما لا
تعثر سوى على سائل أبيض شفاف، فتخرج وعلى ملامحها انزعاج،
تنظر بعين الحسد للسيقان والأقدام المحناة المزينة بنقوش دقيقة تختم
الجمال بها الخلاخيل ورناتها العذبة.

قدم ذاك اليوم الملتهبة جماره. ربما لم يكن كذلك، ربما كان
مثل أيام الصحراء الأخر السابقات الناريات العاديات، لكن الحدث،
أن جسد عذرا احترقت داخل خلاياه ألف شمس، حرارته المكبوتة
المتزايدة المتصاعدة تنذر بالانفجار تتسلل من ثقبه ومساماته
وتفر هاربة منزلقة من تحت الأظافر. فكأنها تشر عطرا غريبا. كأنها
ستشتعل. توردت وجنتاها. لم تدر يومئذ لماذا نظرت إليها أمها مليا
نظرات غريبة قبل أن تبسم بصمت مبهم وتهز رأسها.
لم تدر أيضا كيف جاءت الرغبة في فك أي شيء حول جسدها

فحلت ضفائرها وأرخت شعرها، كي لا يعوقه شيء عن الانفلات، ونزعت حزامها لم تدر كيف ولماذا زادت شهيتها لشرب اللبن الرائب، ولماذا هذا الميل المفاجئ والرغبة العارمة تغزو جسدها البض وتدعوخ بجنون كي يتحرك أو يرقص أو يطير. ثم ما هذه الدوخة اللذيذة...!!؟ نسيت عذرا ما طال انتظارها له..

ترأى لها خيط أحمر رقيق يرسم طريقه من بين فخذيها مثل خط حناء مرسوم بعناية حتى أسفل قدمها اليسرى، ظلت من دهشتها تنظر إليه، رافعة ثوبها، تتبع طريق الخيط الأحمر المنعرج تارة والمستقيم تارة أخرى وهو يقطع المسافة من منبعه حتى أسفل قدمها على الأرض. أرخت ثوبها، ثم غابت لتختبئ.. كان قلبها يدق بقوة ألف طبل، وأنفاسها اللاهثة تفور حارقة من المفاجأة.. كادت أن تجهش بالبكاء لولا أنها تذكرت شيئا، شيئا ساحرا مهما للغاية، جميلا ثمينا، محببا، كانت تنتظر امتلاكه منذ وقت بلهفة..

مالت نحو الصندوق الأحمر، التقطت الخلخال، داعبت استدارته ونقوشه ونتوءاته، ضمته إلى صدرها بحنو.. إنه لها.. إنه ملكها لوحدها. قبلته ثم أدارت قفله على طرفيه عند نهاية أسفل الساق بأعلى قدمها اليسرى، ابتسمت منتصرة، ثم خرجت عجلى تتمايل تحت نظرات الدهشة لصحياتها، والضحكات المكتومة وغمزات النساء، وخزرات الغيرة، والوشوشات، وابتسامات الفتيات البالغات اللواتي سبقنها في وضعه منذ مدة وجيزة.

- بالصحة والراحة.. أعذرا!! قالت أمها وهي تقبلها.

عذرا صارت امرأة، ولجت عالم النساء المغربي المدهش من اللحظة هذه فصاعدا، يمكنها، في عرف الطوارق، أن تزين كآية امرأة بالغة، أن تنهى لتجربة الزواج.. خمس مرات إن أرادت، وذاك حق لها.

من الآن يمكن لعذرا أن تحضر الحفلات، وتطلق العنان لصوت قلبها.

- خمسة وخميس يا عذرا.. يا زينة يا بدرة.. يا زينة الوقفة والخزرة..

صرت امرأة.. كنت أشعر بتلك الرجفة الأسطورية التي تشعر بها جميع إناث الطوارق عندما يبلغن، ويتناقلن الخبر مؤكدات أن الرجفة تلك ماهي سوى عبور روح أنوثة الملكة تينهيان في أجسادهن. أنا أيضا شعرت بتلك الرجفة بروح أنوثة تينهيان تسكنني. كانت أُمي تفكر في خيمتي التي ستدق أوتادها قريبا. ستزيد خيماتنا خيمة جديدة، ستنصبها عالية قرب خيمتها كما تفعل أمهات البنات اللواتي يصبحن نساء على غفلة مثلي..

سترفع خيمتي قرب خيمة أُمي، كما رفعت خيمات بنات خالاتي محاذيات لخيمات خالاتي وخيمات بنات عمتي يسندن خيمات عماتي. من اليوم سأطلق عيون قلبي حيث يسير أجمل الفرسان.. سأكون سيدة خيمتي مثل أُمي وجداتي ومثل الملكة تينهيان.. سأقف أمام خيمتي وكأنني أمام باب الجنة.. سيدخلها الفارس الذي سأختاره سعيدا وكأنه يدفع دفعة باب الجنة ومن أطلقه سيخرج منها تعيسا وكأنه خرج من الجنة قاصدا جهنم. سأكون أما لأطفال يتتمون إلي وإلى أُمي.

لا غرابة ألسنا نحن حاملات الإرث، ألسنا نحن الذاكرة.

سأختاره شجاعا وسيمًا، غامضا كالصحراء. ملثمًا كما تلثم السحابات القليلة العنيدة وجه السماء، كريما، زاهيا بأخلاق الطوارق العالية، سأختاره منهم في لياقة ولباقة وعزة نفس، من هؤلاء الذين علمتهم الصحراء الصبر والنقاء والشموخ. يلقنهم ركوب المهاري البيضاء العالية الإقدام، ويزيدهم رجولة، ويعلمهم الرحيل الدائم

الحنين، يمنحهم الترحال أسرارته التي لا رديف ولا نعت لها سوى الجنون المطلق حين تشتد الذكورة. ساداعب شعره، سأساعده ليرتدي الرداء الأزرق الغامق «التقلموست» بيدي هاتين، سأغار من السماء لأنها ستعشقه مثلي، ستبعه حيثما سار، أعذرهما لأن ثلث لونها الأزرق الفاتن يستقر فوق جسده تحت عينيه الباسمتين وهو يتصب بقماته شاهرا أعلام نسبه في هدوء وحدة وثبات.

تضع الحاجة عذرا الخلخال جانبا، كانت تغالب تنهيدة كادت أن تمزق صدرها. تشعل عود القماري، ينطلق للتو من رأسه دخان خفيف أبيض ناعم، فتمتلئ الشقة عطرا دافئا، تلتفت إلى حلي العظام والخشب، تمرر عليها أطراف أصابعها.. كأنها وجوه حبيبة تنظر إليها أو شفاه تبتسم على اطرافها كلام تريد أن تفضي به، إلا أن الحاجة عذرا لم تترك لها فرصة الحديث، كأنها تعبت من الحنين. الحنين الذي يجعل الغياب ويجعل من الأشياء العادية خارقة.

تلقي الحاجة عذرا بالنظر نحو الخارج، كم تحب النوافذ.. الاختراع الوحيد الذي يحظى باحترام عذرا في بهرجة المدن.. النوافذ.. شكرا لمن اخترع فكرة النوافذ.

ولأنها لا تريد لحاجز ما أن يحجب الضوء، لا تحب الحاجة عذرا الستائر أبدا، لا تريد حدودا بينها وبين الشمس، ربما لهذا السبب لم تعلق الستائر أبدا في شقتها. تريد أن تفتح عينها دوما على أول تباشير الصباح الجديد، تعانقه وهي في سريرها بينما يقابلها جزء من السماء.. السماء التي لا تكاد تتحرر من البنايات العالية.. تقوم بتأقلم حتى منبع الضوء تمت:

- يا حسراه على ضو!

العمارات الشاهقات تحجب حرية الانطلاق، كل صباح ترسل منها
النظر دون جدوى تبحث عن منبت الشمس، آملة ولو مرة أن يستطيع
اختراق هذه البنايات اللثيمة، فيغيب ويترنح ويتمرغ على الرمال هناك،
ويتدحرج فوق الكثبان، يمرغ أطراف أجنحته التي جمدها برد الليل.
تأمل أن تحس بالشمس القوية تنزل فوق الواحات، وعلى خرير ماء
الفوقارات، وعلى الحيطان الحمراء السميكة القصيرة المزينة بالثقوب،
تحفظ رطوبة الردهات فيتلاأ التراب، وتلوح الأشعة بأذرع النخيل
المائل بالعراجين البرتقالية السخية. النخيل الباسق الممتد في عليائه،
فخورا متكبرا زاهيا تحيط بوجهه أشجار السفرجل، فتبخر العطور
وتمتزج، لا يضاهيها أي عطر، حين تشتد الحرارة حتى أقصاها ويسود
الصمت، الصمت المكمل برائحة الشاي والنعناع.. تتقلب حبات الرمل
النقية ضاحكة، تنتظر أقداما تمر بها.. تنتبه الحاجة عذرا إلى قدميها
الحافيتين تدوسان البلاط البارد.. تنهد ثم تعود إلى فراشها.. تدس
رأسها تحت الغطاء السميك.. لا تريد لأحد أن يرى دمع الطوارق
ينهمر.

باب الجمعة

إنه يوم الجمعة.. تبدو الشقة وكأنها مهجورة.. غرفتا صديقتي باية ونسيمة لا تزالان مغلقتين وموعد براد التاي الحاجة عذرا ما زال بعيدا.. الصمت يلف كل شيء.. أتسلل إلى الشرفة.. قبالة البحر تبدو المدينة الكبيرة وكأنها تستفيق قليلا قليلا، أو تترنح ببقية دوخة من آثار سكر البارحة.. المدينة الكبيرة المترهلة تخرج لتوها من حمام البحر الأبيض المتوسط بمناشف ناصعة البياض وكأنها تغسل أسنانها بزبد البحر، تبدو أمواجه وهي تتكسر على الشاطئ من بعيد، الشارع تحت الشرفة يتنفس الصعداء، ويتشاءب ويعرض اشجاره تحت شمس دافئة، كأنه يغتنم غياب قوافل السيارات المتراصة في أيام الأسبوع الأخرى.. نضّ عنه دروع الحديد الضاجة تحبس صدره طيلة النهار وأجزاء من الليل.. ها هو طليق الآن.. لا سيارة تمر.. هدوء مطبق.. إنها الجمعة. حالة الشارع الهادئة اللحظة وأنا أتأملها من فوق، تذكرني بالصور الفوتوغرافية لأرشف شوارع المدينة هذه، بالأبيض والأسود، تمتعت ذات يوم بمشاهدتها في أحد معارض الصور العتيقة.. أسترجع ذهولي حين شاهدت الصور المصفرة التي لم يزدها الاصفرار إلا غموضا

ساحرا، وقفت مندهشة أمامها، وقضيت وقتا طويلا في تأملها.. كم كانت مدننا جميلة.. نظيفة ومضاءة ومشجرة ومزهرة.. تبدو واسعة شوارعها وسماؤها وأكثر شساعة.. يا إلهي كيف تضيق السماء أيضا؟. ترَّيف كل شيء حتى لا تكاد تفرق بين العاصمة وقرية نائية.. المشاكل نفسها.. لم أجد فرقا كبيرا بين مدينتي الأصلية التي جئت منها والعاصمة.. التساوي في القرف، العدل في اللاجدوى.

إنه يوم الجمعة.. التهيدة هذه التي تشق صدري تنبهي أنني اشتقت إلى بيتنا.. بيتنا يوم الجمعة. يا لها الأشواق ما أقساها. على الرغم من مجهود الحاجة عذرا لمحاولة بعث الأنس في مساءاتي، ووجود نسيمة تغني بغرفتها دون انقطاع بصوتها الشجي وتحلم أن تصوير فنانة كبيرة، وبابة تصلي بغرفتها دون انقطاع أيضا وتسال الله أن يبعث لها بزوج صالح، إلا أن الشوق يأسرني أحيانا.

أشعر بالرهبة أيام الجمعة.. منذ أن مات أبي وأنا أخاف الفراغ الذي يتركه هذا اليوم في الهواء. الصمت الجنائزي الذي يتغلغل في الأركان وعمق الأشياء.. الجمعة بدون أبي يوم معلق في الهواء، أربع وعشرون ساعة زائدة عن الوقت.. لا جمعة دون أبي ولا أبي دون جمعة.

كان دائما أول المستيقظين في الأيام الأخر من بقية الأسبوع، لكنني لا أتمتع برؤيته ولا أشبع من وجوده، مستعجلا ليلتحق بعمله، إنه أول من يترك البيت، إلا يوم الجمعة.. فإن أبي يملأ الدار بقامته الفارعة وصوته، ونحنحاته، وخطواته. ويغمرني صوته القوي حين يناديني:

- زوخا زوخا.. جيبي لي كأس ما.. بتنتي.

أثناء الجمعة أشعر بوجوده الشامل، الغزير، المحبب، وأحس بطاقته تملأ زوايا البيت، وتغمر فراغاته الأكثر صغراً ونأياً. يصبح البيت في حواسي الست المفتحة أكبر وأكثر دفئاً وضوءاً. حضور أبي يوم الجمعة يزيدني اطمئناناً.

يستيقظ.. يتنحى.. ثم يتمم لست أدري بماذا، أو كأنه يدندن أغنية ما.. وبرأسي الصغير ذي الشعر الأشعث، متناومة من تحت الوسادة أسمع هسيس خطواته، وهو يمر بغرفتنا أنا وأخواتي. من خلف رموشي المنسدلة بالنعاس، أراه يفتح الباب ثم يتفقدنا وكأنه يعدّنا واحدة واحدة، يتنهد بعمق ويدعو بصوت متقطع دعاء قصيراً أحفظه، ومن خلال أهدابي أرى أساريه كأنما تنفرج قبل أن يرد الباب ويختفي.

من الحمام أسمع صوت الماء المختلط برنين الطاسة التي يغرف بها.. تملأ رائحة الصابون وبخار الماء الساخن ومعجون الحلاقة المعطر لأرجاء البيت.

لعله يتوضأ الوضوء الكبير.. كلمة كلما سمعتها رجت جسدي قشعريرة لثيمة.. كلمة ارتبطت بأبي ولا معنى لها بدونه. - راه يتوضأ لوضو الكبير.

كذا ظلت ترن في أذني وشوشة أُمي ذات صباح جمعة لأختها التوأم، التي حلت ضيفة عندنا آتية من بلد بعيد. لم تأبها لمروري ووجودي قريهما.

وما أن قالت لها ذلك حتى تبادلنا نظرات قصيرة مرتبكة، وبعد لحظة صمت، غابتا في ضحكة هستيرية، طويلة أسالت دموعهما وفرقت رثيتهما ولم تهدأ إلا بعد لأي.

ظلت الجملة الشيطانية تلاحقني، كيف لأبي أن يشير كل هذا

الضحك..

أبي هو أبي.. قد يثير الإعجاب، أو الرهبة، أو الخوف حتى.. أما أن تضحكا منه فهذا غريب.. وفوق هذا كله، هو الذي يتوضأ الوضوء الكبير وليس الصغير فقط.. ثم ما معنى الوضوء الكبير.. من المؤكد أنه أقوى وأعمق وأفضل وأكبر من الوضوء الصغير.

ظلت الجملة اللعينة ترن في أذني، لم أدرك معناها، ولم أتجرأ أن أسأل أحدا. من المؤكد أنني لن أفكر في الاستفسار عنها من أمي طبعاً، لأنها ستثور في وجهي حتماً، وستوبخني كعاداتها بتهمة التنصت على كلام الكبار.. وستعيد جملاً من كلام توبخني عادة به، أحفظه عن ظهر قلب، حتى أنني أحياناً أردده معها خلصة مثل بيبغاء، بتحريك شفتي دون صوت.

بعيدا عن أمي، أطلت فكرة معقولة جداً تروم إشباع تطفل رأسي الصغير.

لابأس أن أسأل المعلمة في القسم، أليس من المفترض أن تفهم عقل امرأة أخرى مثلها.. أليست معلمة، وامرأة قادرة على فك طلاسم حديث أمي مع خالتي أختها التوأم.. سأسألها، وإن كان ذلك ليس بالأمر الهين.. سأفعل.

مغامرة هي إن أنا فعلت.. ولكنني سأفعل لا محالة أريد أن أفهم.. لن أتردد. عليّ أن أعرف ماذا يُحكى عن أبي، لماذا تضحكان منه وهو الذي يتوضأ الوضوء «الكبير».. كيف يصير شيء «كبير» مضحكا في عالم الكبار.. غريب عالم الكبار هذا.. أخاف أن أكبر.. أحياناً تحاصرني الأسئلة وأشعر بضيق.

اليوم سأسال المعلمة على مضض، عليها تريحني، على الرغم من أنني لم أرتح لها يوماً، لم أر منها إلا الفظاظة والغلظة. حتى قبل

أن تدخلنا القسم وبينما نحن نصطف أمام الباب، تبدأ في الصباح والصراخ والأمر والنهي، بأعلى ما لديها من حبال صوتية، ثم إن راثحتها تزعجني، كريحة منفرة، لم أرها غيرت جلبابها الخارجي منذ بداية السنة ولا أدري ما حال لباسها الداخلي.. كم كنت أتمنى أن تكون لدي مدرسة، وقسم، وساحة، ومعلمة، تشبه ما أراه في أفلام الكرتون والرسوم المتحركة بمنتهى المتعة.. القسم منشرح واسع بنوافذ كبيرة نظيفة، مرتب مزين بصور جميلة. تلاميذه قليلون نظيفون ومعلمة لطيفة وأنيقة، ذات صوت ناعم ووجه حنون مبتسم، شعرها مصفوف بعناية وتبدو نظيفة وجميلة..

لا أدري إن كنت سأنسى خلال حياتي كلها اليوم الأول لدخولي المدرسة، حين وضعت قدمي الصغيرتين بها، على الرغم من وخزة خوف في صدري، كنت أزهو بثوبي الجديد ومثزري وحذائي ومحفظتي وأحلامي وكأنني أمتلك العالم.

هالتي الواقع، وخائني خيالي الصغير المصنوع من أوهام، شعرت بذل وانكسار، وأتعبتني المقارنات، ويوما بعد يوم، سنة بعد أخرى، فقدت ثقتي في الخيال، وتخلّيت شيئاً فشيئاً عن أوهام أفلام الرسوم المتحركة، وبدأت أتغلغل وأضيع في رمادية شبكة الواقع الحقيقية ليومياتي، في مدرسة لا تشبه المدرسة التي رسمتها بأقلام ملونة في مخيالي الفتى الواسع.

- معلمة.. معلمة.. ما معنى الضوء الكبير، من فضلك؟؟.

نظرت إلي بشيء من الدهشة، مقطبة حاجبيها كالعادة، ارتجفتُ انفعالا بقوة حتى مالت عضلة خدي الأيمن معوجة نحو الأسفل بغير إرادة مني..

- أعيدي السؤال بصوت مرتفع.. يا زوخا..

يا إلهي.. إنها تطلب مني إعادة السؤال.. ترددت لحظة وأنا ألوم نفسي على هذه الورطة.. يا له من هلاك.. لأول مرة أحن إلى العودة لرحم أمي.

لكن وجهها أصبح بشوشا فجأة وبقدرة قادر.. تفاجأت لسرورها.. بسرعة وعلانية، أشهرت سعادتها وهي تسمع السؤال للمرة الثانية.. انشرفت ملامحها فجأة، وتفرست في وجهي، وهي تعدل غطاء رأسها، كانت تكتشف وجودي اللحظة من بين ثلاثين تلميذا وتلميذة. تنحنحت واستبشرت خيرا بسؤالي، وشكرتني عليه أمام التلاميذ وهي تحاول أن تثير اهتمامهم لتقلل من الأحاديث الجانبية بينهم.. لم تشد انتباههم بما يكفي، يبدو أن موضوع أبي وأمي وأختها التوأم والوضوء الكبير لا يهم أحدا غيري ولا يابه له أقراني. تنفست الصعداء..

و إذا بها تنهر التلاميذ بصرخة حادة وبصوت ليس يعلو عليه صوت.. استطاعت المعلمة أن تسكت الجميع.

أطرت أولا على فطنتي، وأعلنت أنني على صغر سني، بدأت أخطو نحو الإيمان الصحيح، والاقتراب من الله وطريق جنة الفردوس، وقالت إنها فعلا تفاجأت من سؤالي الذكي، الذي كما أكدت وهي تردد عبارتها الشهيرة «إن دل على شيء فإنما يدل» على طفرة نضجي، وتقدمي العقلي بالنسبة للبقية.

استغربت من رد فعل المعلمة.. كيف غيرت موقفها مني على حين غرة.. الحق يقال كنت أشعر بشيء من الزهو..

هي التي دائما وإلى عهد قريب، كلما نطقتُ، أو سألتُ عن عملية حسابية، أو شيء لم أفهمه، تنهرني، وتعيرني بالغباء والكسل

وقلة الفهم.

كيف تغيّر الحال فجأة.. شكرا لأبي، ووضوئه الكبير.
الآن تنظر المعلمة إلي بإعجاب وهذا رائع.. يبدو أن «الوضوء الكبير» مسألة مهمة وعظيمة عند الكبار.

- هذه هي الأسئلة الحقيقية التي تفيد مستقبلكم وتنفعكم في الدنيا والآخرة.. تعلموا أيها الحمير..
هكذا بصقت في وجه الجميع.

كانت تصرخ وهي تشير إلى التلاميذ الجالسين في المقاعد الخلفية.

على الرغم من أن الحصّة كانت لدرس الحساب، إلا أن المعلمة استفاضت بسخاء في الحديث عن الوضوء الكبير، ولأول مرة سمعت كلمات جديدة (الحدث الأصغر - والحدث الأكبر..) إلا أنها كلمات لا علاقة لها بدروس الحساب، بل لها علاقة بحساب آخر.

- الحساب والعقاب شديدان، ستعلقون أنتم وأمهاكم وآباؤكم من رموشكم.. جميع من لا يفعل ما أقوله لكم سيكون مصيره بشس المصير.. إنه شرع الله.

هكذا أسترجع صوت المعلمة المخيف..

وحين أعود إلى البيت في المساء، أطيل النظر في أفراد عائلتي بينما قلبي ينقبض.. أتخيل أمي وأبي وأخواتي وأهلي جميعهم، يعلقون من رموشهم، وتحتهم حطب كثير مشتعل، ونار أبدية تتصاعد إلى أجسادهم وهم يصرخون. ويتباكون ويتوحعون.

تغيرت صورة الله لدي..

يبدو أن المعلمة لا تعرف الله الذي يعرفه جدي. في حديث جدي كان الله طيبا وكبيرا وكراما، مثل السماء دائما يتسم، يحمل في

يديه الكبيرتين الشمس في النهار، والقمر والنجوم في الليل، وأثوابا وحلوى وألعابا ملونة، وهدايا جميلة.. كلما سقط المطر أو ندف الثلج يقول جدي:

- هاذي رحمة من عند الله.....

كم هو الله طيب وسخي، وجوده ضروري في حياتنا.. ماذا كنا سنفعل بدونه؟؟ يردد جدي..

وكلما اشترى لي شيئا، يخبئه تحت بُرُئسه ثم يقول، بينما هو يقبل رأسي وخدي..

- إنها هدية من الله.. لأنك طفلة مؤدبة.. وهو يحبك.

كنت أفكر أن جدي قريب جدا من الله، وأني محظوظة بكل تلك الهدايا التي تأتيني منه، ثم إنني علمت منه، أن هناك أفعالا تغضبه، الكذب مثلا يغضبه، وتغضبه السرقة، ولا يجب أن أسيء لأخواتي، ولا لقطنتنا ولا للعصافير التي تحط على أطراف النوافذ، وعلي أن أعني بالنباتات لأنها من مخلوقاته، وعلي أن أروبها لأنها حية تعطش مثلنا، وقد تموت من الإهمال، ولها الحق في الحياة لأنها تشاركنا في امتلاك أرض الله.. ويفرح بي إذا ما أقدمت على مساعدة غيري إذا استطعت إلى ذلك سبيلا، وعلي أيضا أن أسمع نصائح أبوي وجدي ومن هم أكبر مني سنا وتجربة.

كم هو رائع الله.. جدي يقول دائما إنه خير كله وسلام ومحبة وطمأنينة.

- تغيرت.. نعم تغيرت.

لم يبق من عاداتي القديمة شيء مما علمه لي جدي وقتئذ، سوى أن أحدث الله على انفراد قبل أن أنام، وفي سرية تامة، فأجده قريبا مني يسمعني بإمعان، ثم أقرأ سورة الناس، وأعد على أصابعي واحدا

وعشرين مرة «باسم الله الرحمن الرحيم»، و«أستغفر الله»، ثم أختتم بدعاء لم يتبدل لا بزيادة ولا بنقصان منذ طفولتي، منذ بلغت سنواتي الخمس حين علمني جدي طقوس الصلاة لهذا الخالق الودود..

تعلمت أن الله طيب، وعلي أن أحبه، فهو يحبني ويحب أسرتي ويحب العصافير التي لا تتوقف عن الرقص والغناء على الشجرة بقرب بيتنا..

منذ أن حدثني جدي عنه، وأنا أكاد أراه في كل مكان مبتسما ببالغ الطيبة.

- ربي ما يحبش الشر.. هكذا لخص كل شيء.

لم يكن صعبا علي أن أفهم ما معنى الشر بما أن ربي لا يحب الشر كما قال جدي، وكما كان يؤكد فقيه الجامع الذي يحفظنا القرآن، فيعني باختصار أنه يحب الخير.. لم يكن صعبا أبدا علي أن أرضيه.. لم تكن طلباته كثيرة هو الذي منح كل شيء. لم يكن يطلب شيئا محددا له، كل ما كان يطلبه هو أن لا نفعل الشر وما معنى الشر إذن... الشر باختصار ووضوح لا غبار عليه أن نسبب الضرر لغيرنا، نسيء لمن هم شركاؤنا في الحياة على الأرض. يقول جدي إن شرنا لا يضر الله في شيء بما أننا لا نراه ولا نلمسه ولا ندرُكه. وصاياہ بسيطة ومفهومة كالماء.. تعلمت ذلك ببساطة الحياة وفلسفة واضحة مقنعة، كانت تزداد عمقا مع مرور السنوات فازداد حبي له.

تكبر صورته شامخا مضيئا قويا طيبا جبارا متسامحا.. كنت أشعر أنني أزداد جمالا كلما أرضيته. أصلي وأحمل محفظتي وأوراقتي وأخرج خفيفة، أراه في الضوء الذي يغمرني من شعري حتى أخصص قدمي..

نعم كنت أراه في كل شيء وأشعر بالطمأنينة..

تغيرت صورة الله لدي..

يبدو أن المعلمة لا تعرف الله الذي يعرفه جدي. لم تتوقف المعلمة عن الكلام وبصوت مرتفع، كانت تتحدث عن أشياء لم نسمعها من قبل وبين الفينة والأخرى يتبع التلاميذ كلماتها بالسؤال.

- معلمة معلمة ماذا تقصدين بالجماع؟

كلمات جديدة: الجنبه.. النكاح.. الطهارة.. الوطء.. تفسرها المعلمة دون أن يرف لها جفن.. تتكلم بمتعة كبيرة.

كنت أتخيل أبي في معانيها ومبانيها، وزاد أمري تعقيدا وطنيني بلة حين ساءت المعلمة بإطناب جميع التفاصيل الدقيقة دون حرج وهي تردد بين الفاصلة والأخرى:

- لا حياء في الدين يا تلاميذ لا حياء في الدين.

لأول مرة أرى التلاميذ قد انسكبوا فجأة في صمت جنائزي، وفي انتباه تام يشبه الغيبوبة.. صمت لا تفتأ أن تشوبه لحظات متوترة تعلوها ضحكات مكتومة من التلاميذ الذكور خاصة. أما البنات فكان الإحساس بالضيق بيننا على وجوههن كن مثلي، ربما، يكتشفن آباءهن.

تغيرت صورة أبي في مخيلتي الصغيرة.. كما تغيرت صورة الله. لم يعد أبي كما كنت أراه. وتشوشت في ذهني الصغير صورة الله الطيب المبتسم الذي يرسل لي كل الأشياء المفرحة عربون حبه ورضاه عني.

صار متجهما يحرق بالنار ويعلق الناس من رموشهم ووو..

لم تراودني من قبل فكرة تخيل ما تحت ملابس أبي.. ولم أتساءل يوما في ماذا يصلح لأبي ما تحت ملابسه، وماذا يشبه؟ كنت أتخيله أحيانا وقد ولد هكذا بملابسه الكبيرة.

شعرت بغضب ورفض..

يحتمل أن تعرف المعلمة كل شيء.. ولكن كيف للمخلوقة هذه أن تعرف أبي أكثر مني.. إنه أقرب إلي منها وأراه وألمسه وأشمه وأعانقه وأحدثه، كيف للمعلمة أن تعريه بهذه الطريقة المشينة.. لا أعتقد أن أبي يفعل ذلك.. لا.. لا ليس هو.. ليس أبي.. ثم كيف لها أن تعرف الله أكثر من جدي الحكيم الطيب؟؟

- هكذا إذن يا أبي.. الموضوع الكبير؟؟ ما دهاك؟

انتهى الأمر.. صورة أبي تخلصت، وتشوشت في ذهني الصغير. لم يعد أبي نفسه، صار آخر غريبا عني.

عالم الكبار غامض جدا ويفاجؤك بالصفعات.. كلما كبرت تكبر مفاجآته ويتوضح لك أنك كلما اكتشفته أكثر، يصغر في عينيك ويضيع.

ذاك الـ «أبي» يمتلئ البيت بعطره الأسطوري وهو يحلق ذقنه، يمشط شعره، ثم يخرج إلى الشارع الفارغ من الناس والسيارات والباعة كعادة الجمعة، وقد وضع البرنس البني فوق أثوابه الجميلة البيضاء الناصعة التي لا يرتديها سوى أيام الجمععات والأعياد قاصدا المسجد. أتتبع خطواته حتى يغيب ليدلف من شارع ألفريد دي موسي لشارع الأمير عبد القادر، عبورا بسوق مارشي ميشلي ثم أغلق زجاج النافذة. تبدأ رائحة مرق الكسكسي الشهية في الانتشار في بيتنا مثلما هي عادة أغلب البيوت أيام الجمععات.

- تغيرت.. كم تغيرت.

من يعيد لذهني صورة الله التي رسمها جدي في ذهني الصغير لأنني أحبها وأحتاجها، إنها تريحني من الأسئلة التي تكبر معي ويزداد

عمقها مع ازدياد التعقيدات التي تحيط بي من كل جهة.. أين الله الذي يعرفه جدي المتسامح الطيب من الله الذي قتلوا باسمه الآلاف من الأبرياء لمدة عشر سنوات وكادوا أن يحرقوا البلد أخضره ويابس، صغيره وكبيره، كل ذلك كي يصلوا باسمه إلى السلطة وأن يصيروا آلهة صغيرة للناس على الأرض..

تغيرتُ لأن كل شيء تغير حولي.. لم أعد غريرة.. سنوات الجمر التي فاجأت سنوات مراهقتي وتفتحي، جعلتني أكبر بسرعة وأعي العالم بعمق أكبر من سني، وأحرق عشر سنوات من الأسئلة التي أنضجتني على نار ليست بالهادئة.

وإنها الجمعة، الشارع في الأسفل مفر جدا للمغامرة، الحاجة عذرا لن تأتي الآن لتفتح باب الشقة تسبقها رائحة النعناع ولن تبرح باية ونسيمة غرفتيهما للتو.

قررت أن أخرج إلى جمعة هذه المدينة، أن أسلم نفسي لهذا الشارع الفاتح ذراعيه، يدعوني بالراح.

نزلت مسرعة بعد أن خبأت جسدي النحيل داخل سروال جنز وقميص أبيض، وألقيت بنفسي إلى الشارع الفارغ مع بدايات النهار.. لا أحد.. كنت أشعر أن الشارع ملكي أنا لوحدي، وكأن المدينة الكبيرة هذه، التي عادة ما يغمها الازدحام، اللحظة تظمئن لي ولخطواتي في هدوء قطة تغرغر في طمأنينة.

يا الله.. كأن منسوب الهواء أصبح فائضا. كأن رائحة البحر تتوغل في كل شيء تحمل رسائله المشفرة إلى الناس.

كأن السماء أصفى، والبنائات بياض أنصع.. الشوارع خالية إلا من بعض رجال الشرطة وسياراتهم.

باشرنى واحد منهم بصوت معسول، كانت عيناه القاسيتان تلمعان تحت قبعته بينما كرشه تضغط أزرار بذلته الزرقاء الرسمية:

- لوين بيها يا لَغْزال.. ودّرت داركم.. تبغي نوصلك؟؟
لم أرد.. بل واصلت طريقي بهدوء.

كنت وأنا أبعد أشعر بعينيّه تجردانني من أثوابي، قطعة قطعة، فتساقط من على جسدي واحدة بعد الأخرى، فوجدتني أقبض بقوة على ما تبقى منها بكلتا يدي، إلى أن سمعت في البعد زميله يناديه بحدّة ولوم.

- كابورال.. ها رواح أصحابي..!!

تنفست الصعداء وتفقدت ثيابي قطعة قطعة وأزراري زرا، زرا. شعرت بأذى.. علي أن أنسى الحادثة فوراً كي لا أسمّ هذه النزهة.. علي أن أفكر في شيء مختلف.

لا أحد.. الشوارع الطويلة الممتدة تزهو بأشجارها.. كم عالية هي وباسقة وعتيقة وقوية وجميلة. اليوم تأخذ أبعادها في الامتداد والخضرة، لا أحد ينتبه لوجودها في الأيام الأخر، أيام للسيارات المتلاحقة المتزاحمة مثل دود عملاق يزحف في المدينة. اللعنة على الضجيج والسرعة والتلوث والغبار والدخان.. الآن، الطريق، والأشياء جميعها في سبيلي، تنفّس الصعداء وتشكر الله الذي خلق الجمعة.

باب المسجد الكبير الذي يتوسط المدينة مفتوح نصف بابه الخشبي العملاق. عند أقدامه وعلى مقربة من الدفة الثانية، يجلس في صمت مجموعة من المتسولين في حالة رثة، بينهم نساء يقبعن ذليلات، يحضن رضعا أغلبهم نائمون. ربما قضوا ليلتهم هناك.. من يدري.. المنظر ليس غريباً ولا استثنائياً..

كلما أردت أن أهرب ببصري نحو الجمال الطبيعي الذي يجلو

المدينة، تعثر قلبي بامرأة بائسة أو رجل يعصر ملامحه ألم العوز والفاقة، أو أشخاص يبحثون في صناديق القمامة التي لا ترفع من حسن الحظ أو سوئه يوم الجمعة، وشباب كثر يستندون إلى الحيطان.
- لا.. لا هناك خلل ما..

- أشعر بالغضب العارم والإحساس بالعجز.
ما الذي أستطيع فعله؟ وأنا التي جئت أبحث عن حظي، خلته أحسن هنا من المدن الأخرى؟

اللعنة.. كيف لهذه البلاد الغنية بكل شيء، فائضة الخير والثراء، من الماء حتى الرمل، أن يشكو أهلوها من كل هذا البؤس. أين القائمون عليها وعلى ثرواتها ماذا يفعلون بها؟
- .. خلّي البير بغطاه.. لا، لا.. عرّي البر من غطاه.

بدأت رائحة الكسكسي تتسرب إلى كل مكان، تخرج من النوافذ وأبواب العمارات.. تتسلقني.. تضخم حنيني لبيتنا حيث عادة كسكسي الجمعة، وكأنه فرض سادس. يحوم أفراد العائلة حول المائدة فوقها القصعة الكبيرة التي تضعها أمي أمامنا شهية يسيل اللعاب لرائحة الحمص واللفت بين بقية الخضر والمزيج السحري للتوابل ونحن نتنظر رجوع أبي من صلاته، بينما تبعث أمي بصحن شهوي آخر إلى مسجد حيّنا.

- صدقة مقبولة على المرحومين.
تنهد أمي وهي تفكر في والديها لا شك.. وتذكر أن شهرا مضى دون زيارة قبريهما.
في هذه المدينة الأنانية الصماء لا أحد يفكر في أحد.

تتجلى لي الآن صورة أُمِّي الطيبة الغريرة تغطي بصري وتلثم
حواسي كلها.

نعم غريرة إلى درجة السذاجة أحيانا، على الرغم من تعنيفها لي
وصراخها فهي مفرطة في حساسيتها، ودموعها على طرف رموشها،
تبكي لمجرد سماعها حكاية حزينة أو مشاهدتها فيلم درامي، ثم إنها
لا تكتفي بأن تساند من قست عليه الدنيا، بل يتخيل لي أنها تضع
نفسها في مكانه وتلبسها حالته حتى تغيب حدود ذاتها عما يفصلها
بالغير.

كثيرا ما رأيتها تمسح دموعها السخية وهي تتمم كلما وصل إلينا
من الشارع صراخ يمزق صدر الظلمة، صوت المرأة التي كأنما تختار
الليل بمثابة جبل أصم أو وادي سحيق تصرخ فيه، وتسمع صدها:
- أعطووووووني حوايجيسيسي..

تغالب أمي الدمع وهي تعيد تفاصيل حكاية «الشريفة القليلة»
المسكينة، لا تمل من قصها وإعادة ذلك.. ربما هي تريد إشراك
الجميع في محتتها.. تكررهما لمن لا يعرف حقيقة الصرخات الجريحة
تلك..

- «الشريفة القليلة» مسكينة.. سعدتها قليل..

قليلة الحظ فعلا، فاجأها زوجها ذات يوم بافترانه بامرأة أخرى، وهو يمد لها ورقة الطلاق باردة.. تم طلاقها بطريقة غامضة وبحجة أنها لا تصلح لفراشه، ولأنه رجل لا يقتدر عليه مقتدر، له معارف كثير.. بقوة القانون الذي فوق الجميع، بقوة قانون الأسرة فقد احتفظ لنفسه بالبيت وممتلكاته ثم طردها ذات ليلة مشؤومة، بينما سكن في طمأنينة إلى عروسه الشابة.. بعد أن هدهدها بعدم الاقتراب من البيت

وأطرى وأخصب وأجمل، وهي التي تعرف أن من حقه أن يفعل ذلك
مسندا بقانون؟

هل تخاف أمي من قانون الأسرة الذي لم يضمن لغيرها حقهن
المطعون؟

هل تحب أمي أبي؟

و هل يتعايش الحب مع الخوف؟

لماذا أرى في عيني أمي الفزع الدائم عندما تفكر أننا كبرنا وأنها
نتناقص في البيت كل واحدة إلى مصير ومبتغى؟

هل تسمع أمي بالتجمعات النسوية التي تدافع عن النساء.

ماذا لو تسمع بنساء تطالبن بتعدد الأزواج ردا على تعدد
الزوجات؟

بخلاف أمي الهشة المستكينة، التي لا تجادل أبي في أمر، ولم
أسمعها في حياتي تناقشه لتقنعه بشيء تخالفه فيه، فطوم جارتنا التي
تجمعها بأبي قرابة عائلية، على الرغم من أنها بنت أعمامها كما تقول
إلا أنها تمثل نقيضها التام والصارخ في عيني.

تشيع فطوم في الناس لقبها السائر «فطوم مونرو».

الحق يقال كنت أرتاح كثيرا لزياراتها ولوجودها بيتنا قرب أمي،
أشعر بتوازن غريب.

على العكس من أمي التي تبدو هادئة صامتة، فإن «فطوم مونرو»
مستنفرة دائما ومتقدة ورافضة ومستنكرة، تروج من بعيد لكل تحرك
تقوم به الجمعيات النسائية، حسمت أمرها منذ مدة بتردادها أن قانون
الأسرة ذاك لا يهمها ولا يمثلها وأن عليه أن يذهب مع الريح، وينقرض
كما انقرض زمن الحزب الواحد، فعلا، فإن «فطوم مونرو» خارجة عنه

فعلا وعملا وليس قولاً فحسب.. وإلى الجحيم من قننه ومن قرره ومن جعل تطبيقه جار.

- أنا خارجة على قانون الأسرة نتاعهم.. واللي يصرا يصرا.. الله ينعل الذل.

وجود «فطوم مونرو» في بيتنا يحدث تعديلا حقيقيا في مزاج أمي وميزانها. إنها تؤنسها. أمي المسكينة الهشة كثيرة التعثر، فهي من أم مغربية وأب جزائري، وهذا لم يسهل لها الحياة قطعاً بسبب شطط السياسات العوجاء الهوجاء، التي لم تكن إلا كارثة في حياتها، ومن ثم في حياة الأسرة كلها بل العائلة جميعها.

كلما أصيبت العلاقات بين سلطتي البلدين بالزكام، أغرقت حياتها في بركة من السم الزعاف.

حدث أن طرد أبوها من المغرب، حين قررت السلطات المغربية أن تصفي حسابها مع النظام الجزائري بالتخلص من الجالية الماكثة هناك، والتي لم يكن يخطر ببالها الرحيل، ثم حدث أن رُحلت أمها بالقوة من الجزائر، حين أرادت السلطات الجزائرية الانتقام من عديلتها، فطردت الجالية المغربية، وفي كلتا الحالتين تتحول حياة أمي إلى جحيم.

مرة لخصت محنتها بقولها:

- هذي سياسة وإلا سيرك وإلا مأتش كرة قدم.. كان عليهم هؤلاء البقر أن يمنعوا من البدء زواج الجزائريين بالمغربيات، والمغاربة بالجزائريات بالمرة.. وكفى الله المؤمنين شر القتال.. ثم بالله عليكم لماذا لا يحدث هذا مع المتزوجين بالفرنسيات أو الإنجليزيات؟

تغضب أمي ثم تطرق بمفكرة دامعة العينين كالعادة، ربما كانت ساهمة بعيداً بمدينة القنيطرة حيث ولدت غير بعيد عن المحيط

الأطلسي.. ربما تفضل في سرها لو أنها تزوجت هناك لربما كان الأمر أرحم.. ربما..

أمي جميلة وطيبة إلا أنني كلما كبرت ونضجت وتعمق وعيي بما حولي وبالعالم، يزداد شعوري بالخوف عليها والقلق من طبيعتها تلك وهشاشتها. لم أكن أعثر عليها إلا عائمة في رائحة البصل والثوم وزيت الزيتون والتوابل.. طبخة ماهرة أمي لا مثيل لمذاق ما تعده. أمي من هؤلاء النساء اللواتي يعشن من أجل غيرهن يؤثرن أبناءهن وأزواجهن على أنفسهن ولو كانت بهن خصاصة. لم أر أمي تعني بزيتها إلا حين عودتها من الحمام العتيق، مرة كل أسبوع رفقة أختي وجاراتها.

كنت أرمقها تسعد مثل بلهاء مطمئنة وهي ترى أبي يجلس إلى المائدة كل مساء يأكل بنهم، كنت أراقبه فلا ينظر إليها أبداً، بل لا يتجاوز نظره الأطباق التي تضعها يداها فيبتسم، ربما كانت تعتقد أن ابتساماته تلك عربون حب وإعجاب.

ثم إن أمي تأكل كل ما يتبقى في الأطباق، ولم أستطع تفسير سبب ذلك لحد الآن، وتردد مثل أمها:

- رمي النعمة حرام.

الفت أمي تزداد سمنة حتى اختلط الطول عندها بالعرض. جاء يوم وقعت فيه الواقعة فسقطت السماء فوقها وفوقنا جميعاً، يوم أخبرتها إحدى جاراتها أن أبي ربما يكون متزوجاً من امرأة أخرى، إن لم تكن عشيقة له فقط، ولم تصدق أمي وأصررت على التفاوضي حتى أتت لها بتسجيل حي لهما وهما يستحمان على شاطئ بوزفيل.. - الحق يقال.. المرأة تبدو أنيقة.. نحيفة وتلبس مايو من

قطعتين..

بكيت سرا، إشفافا على المسكينة أمي، وطيبة خاطرها، ثم وقفت إلى جانبها وعانقتها وأنا أؤكد لها أنه هو الخاسر وليست هي، إلا أنني لم أنكر أنها السبب الأساسي.

كيف تثق ثقة عمياء في رجل، لماذا لم تفهم ما كانت توحى به طاطا «فطوم مونرو» التي تعجبنى في خرجاتها وفلسفتها.

زوج «فطوم مونرو» غائب دوما بحكم منصبه ومهمته الحساسة جدا، إلا أنني لم أسمعها أبدا تشكو أو تتذمر من غيابه، ولم يد عليها أنها تستهجن وحدتها، هي التي لا أحد يرافقها، حتى ابنها الوحيد أرسله أبوه إلى إحدى المدارس العليا بأمريكا.. جميع أبناء أصحاب المهام الحساسة عندنا يعيشون بأبنائهم إلى أمريكا.

غالبا، وفي طريقها إلى هدف ما، تمر فطوم مونرو بيتنا لتشرب قهوة العشية، تأتي بكامل أناقتها، يلمع شعرها المصبوغ دوما بالأشقر الفضي، تضع رموشا اصطناعية، وترسم شامة أسفل خدها، توحى أنها شبيهة مارلين مونرو.. ترتدي السراويل الضيقة والألوان الزاهية، والأحزمة الفضية، ثم تغطي كل ذلك تحت جلباب شرقي أنيق ومنديل أسود مطرز.

ذهب شكى ذات يوم، عندما رأيته في طريقي تجلس بجانب رجل وسيم أنيق، يسوق سيارة رسمية فاخرة.

أبي لم يكن يحب «فطوم مونرو».

- واش ما زال راها هنا مارلين.. وقتاش تروح؟

يقول ذلك بصوت به هدوء ملغوم، ونبرة تكاد تكون ساخرة.

ربما كان يخشى عينيها النفاذتين المربكتين، فيعبر عن امتعاضه من زيارتها لنا، إلا أن أمي كانت ترتاح لقربيتها فطوم وتفضل أن تأتي عندنا في أوقات غيابه، وتتسلى بحديثها كثيرا، ربما لأنها كانت

ترغب أن تشاهد فيها صورتها المقلوبة أو المعدلة التي تفتقد شجاعتها وجراتها. فماذا لو ترى مرأتها عن قرب؟

حين تأتي فطوم مونرو مثل عاصفة فلا حديث لها سوى عن الموضة والرجال، وسفرها المنتظر إلى الولايات المتحدة الأمريكية. - لو كان تولدت في الماريكان يا الحبيبة.. كنت درت انقلاب في هوليوود وكان العالم نسي مارلين مونرو.. بصرح الله غالب يا الطالب. كم كان يسليني ذاك الاختلاف الجذري بين أمي وطاطا فطوم مونرو.. لا تتردد في الجهر بأن الرجال من طينة بخسة، لا يستحقون أن تكسر المرأة أظافرها في الطبخ بسببهم، وغسيل وترتيب أشياءهم، ثم لماذا لا يقومون بذلك بأنفسهم.

- وعلاش هوما ماعندهومش اليدين؟

فطوم مونرو عاشت بعض الأعوام في فرنسا، فلا تمل من ذكر ما لخصته تجربتها وصدقاتها مع عائلات هناك وإعجابها بتعاون الرجل الفرنسي والأوروبي مع زوجته في شؤون البيت، يطبخ وينظف ويمسح ويستقبل الضيوف ويهتم بالأطفال ولا يرى حرجا في ذلك.. ولأن لسان فطوم ينزلق حين تغضب، تسأل باستنكار ومكر وسخرية وبصوت مرتفع وهي تلوح بذراعاها في هواء الغرفة، هل للرجال في أوروبا عضو ذكر واحد بينما للرجال هنا عضوان ذكريان اثنان؟

- واش حاسبين روحهم.. باش زايدين عليهم يا ختي.. علاه هادوك عندهم واحد وانتاعنا عندهم زوج؟؟؟

ترتبك أمي وتسرع لغلق باب الغرفة.

المطبخ عند فطوم مونرو ضياع عمر، سجن مؤبد للنساء لا تريده ولا تهمها مهارته ولا التفنن فيه، وتردد دوما مثلا شائعا تحمله شعارا: «نحن لا نعيش من أجل أن نأكل، بل نأكل من أجل أن نعيش»،

ولا تؤمن بتاتا بالمقولات الشائعة المتوارثة بنتا عن جدّة التي تؤمن بها أمي، بسذاجتها، بأن «الطريق السالك إلى قلب الرجل هي معدته».. هذا يغضب فطوم مونرو كثيرا. رأيتها مرة تكمش قبضتها، وتضعها بين فخذيهما، وتخاطب أمي بصوت أجش:

- ما تكونيش هيلة بنت هيلة.. الطريق إلى قلب الرجل من هنا يا العزيزة.

تضحك أمي واضعة كلتا يديها على وجهها الذي اشتدت حمرة، وهي تردد:

- الله يهديك يا فطوم الله يهديك!!

بدأ المساء يلوح في الأفق.. الجمعة على مشارف السبت إذن.. السماء تلبدت فجأة كما يحدث في المدن البحرية، وأمطار خفيفة تنزل ورائحة الإسفلت تتصاعد.. لن أضيع جلسة شاي الحاجة عذرا.. علي أن أعود..

أوقفتُ سيارة أجرة.

- أسمحين أن أطرح عليك سؤالا؟

كنت آخذ مكاني في المقعد الخلفي وأنا أجفف نظارتي قبل أن ألبسها من جديد، أمسحها من قطرات المطر التي علقت بها قبل ركوبي سيارة الأجرة.

- أسمحين بسؤال..؟

لم ينتظر أن أسمع أو لا أسمع.. بعربية ملوثة بفرنسية مكسورة، كانت كلماته تتعثر في العلكة بين أسنانه.

- النظارات هذه.. تلبسينها كل يوم؟

لم أجب ولكنه واصل:

- وجهك رائع الجمال دون نظارة.. حتى أنك لا تشبهين نفسك وهي تعض على نصف وجهك.. سبحان الله خالق الجمال..
وضعت النظارة الجافة فوق أنفي، لمحت عينيه ينعكس بريقهما في المرأة.

عيناه ملونتان تتحركان بخفة.. وترمشان كثيرا
بعد ضحكة خفيفة قلقة أضاف:

- أسمحين بسؤال آخر؟

تظاهرت بالوجوم لكنه لم يأبه.. لم ينتظر فأضاف بضحكة خفيفة:
- كل الأشياء الجميلة يا سيدتي يجب أن توضع خلف الواجهات
كي يراها الناس كي يتفرجوا على جمالها.. إلا العيون فلا.. العيون
الجميلة لا تغطي يا سيدتي.

أتعرفين يا سيدتي.. عفوا آنسة أم سيدة؟

رفع إبهامه وهو يخاطبني في المرأة.. ولأنني لم أجبه واصل
دون أدنى حرج.

- أنا قصير النظر مثلك.. نحن نتشابه في هذا على الأقل.. ناقص
تسعة درجات في العين اليمنى وناقص ثمانية وخمسة وسبعين في
العين اليسرى.. عندي ليسانس علم النفس ولأنني لم أجد عملا..
بغيت نقلها طاكسي، وبسبب قصر النظر الحاد هذا رفضوا تسليمي
رخصة السياقة لخمس مرات متتالية والله، فتدبرت أمري بعدسات
لاصقة..

ثم أرسل قهقهة قوية وهو يميل إلى الأمام والخلف ضاربا بخفة
رأسه على مسند كرسيه..

نعم أنظري هذه عدسات أضعها، وكل مرة أبذل اللون الذي

يعجبني.. يقترب من المرأة العاكسة ثم يرمش:

- شفت.. اليوم خضرة غدوة زرقه.. وبعد غد الله أعلم..

فقهاته المرحه أدخلت بعض الصفاء في نفسي فابتسمت.

- اسمحيلي نقولك الصبح.. أنت عيونك سوداء واسعة.. العيون

الجميلة لا نصادفها كل يوم.. أصحاب العيون التي بها سحر هكذا

مثلك، عليها أن تظل عارية كما هي، أقصد بعدسات شفافة، عدسات

الرب.

لم أرد، ابتسمت بخفة، ثم وليت وجهي مصطنعة النظر عبر

النافذة.

- أتعرفين أنني بالتجربة أضحيت أعرف طبائع الركاب من

عيونهم، فمنها المائلة إلى الفوق، والنازلة نحو الصدغ، ومنها

المجرورة نحو الأذنين.. ومنها ومنها.. والله العظيم أقول لك الصدق

أصبحت عارفا بأسرار العيون.. فأول ما يصعد الزبون، من نظرتي

الأولى إلى عينيه، أدرك ما بأعماقه.. منهم من لا أباشره ولو بكلمة،

خاصة هؤلاء الذين تشبه عيونهم المصابيح الخلفية للسيارة.. هؤلاء

صديقي لا يسمعون شيئا لأنهم يدعون معرفة كل شيء، وكل كلمة

أقولها يبحث عن نقيضها، لذلك أظل ماسكا لساني طول الطريق. ليس

بالأمر السهل أن تمسك لسانك في هذا البلد.. بصَّخ الصبر مليح..

ظل يسوق من غير سرعة لم يكن الطريق طويلا ولم يكن

مزدحما، الطرق سالكة وتكاد تكون مهجورة أيام الجمعة، لم يسكت

أثناءها لحظة واحدة، وكأنه لم يتنفس. جذاب حديثه عن العيون

وعلاماتها، وسحرها، وقراءتها. طريفة كراهيته للنظارات خاصة

الشمسية التي تحجب أهم شيء في الركاب عن عيونه وتسد أبواب

الرزق.

- بعضهم من النظرة الأولى.. والله من النظرة الأولى يدخلون في القلب، ويهجون خاطر.. مثلك أنت الآن لولا تلك النظارة.. أظن أنك غريبة عن المدينة.. هه؟؟

.... لم أرد على سؤاله. اكتفيت بابتسامة.

- من أي جهة أنت؟

- وصلنا.. وصلنا.. توقف هنا الله يخليك..

- أنت من وهران؟؟؟

أخفيتُ تفأجني باستدارة بطيئة من رأسي نحو النافذة الأخرى وحين أردت فتح حقيبة يدي استدار كلية.. وبابتسامة عريضة أبانت صفي أسنانه وبينهما علكة بيضاء تعاني، تسلم الأجرة، نظر إلى وجهي ثم قال:

- كاستروف!!

لم أفهم ما كان يقصده، ليس مهما..

أغلقت باب السيارة تحت نظراته الخضراء وحين اختفى، نزعت النظارة وضعتها في الحقيبة وواصلت الطريق الى شقة الحاجة عذرا.

لم أكن أريد أن أضيع المزيد من الوقت، سبعة وعشرون سنة يبدو أن مواصلة البحث عن عمل هكذا بنية حسنة في انتظار أن أعثر بالصدفة على إدارة طيبة أمر انتحاري، لكن علي أن لا أفقد الأمل، علي المزيد من الإصرار على الوصول إلى مبتغاي..

وهل زوخا تطلب حليب الطير أو الذهاب إلى القمر؟

أريد فقط عملا يضمن كرامتي، هذه المدينة كبيرة جداً، وكل المؤسسات المهمة وغير المهمة متمركزة بها.. كنت أفكر أن الفرص هنا أرحب.. يا الله لا أطلب المستحيل أنا فقط أريد عملاً.. أريد أن

أستقل بذاتي ولا أكون عالة على أحد.. أليس من حقي ذلك؟!
 البلدان الأخرى التي تنتمي إليها صديقاتي بالمراسلة، ليست
 بالغنى والثراء الذي عليه هذا البلد، ومع ذلك يجدن فرصا للعمل،
 فيصبح للواحدة منهن عمل وبيت وسيارة وحياة كريمة، حتى وإن كان
 ذلك بعد بحث وانتظار. ثم إن الإدارة عندهم ترد بالنفي أو القبول،
 أما هنا فمن المستحيل أن يأتيك الرد لا بالقبول ولا حتى بالرفض..
 ملفات طلبات العمل العديدة التي وزعتها عن طيب خاطر، وبسذاجة
 على مختلف الإدارات، لا تزال تعلقني ما بين الأمل الكاذب واليأس
 اليقين.

لا بد لك من «أكتاف» فإن لم تكن لك «معارف» مهمة فلا تحلم
 أن تحصل على شيء ولا تعتمد على شهادتك وعلمك وذكائك، لن
 يكون لك شيء دون «معارف»، أنت صفر على اليسار دون «معارف»،
 و«معرفة»!! قوية متينة من فضلك.

إن لم يكن من بين معارفك، أو معارف معارفك، أو من بين
 معارف معارف معارفك، شخص ذو مركز مهم، يجعله يطلق أصابعه،
 ويفرقها، فيأمر وينهي، فتق أن معرفتك وعلمك وشهادتك وتجربتك
 لن تفيدك وستظل تقضي بقية عمرك تحلم بـ «الحرقة» عبر البحر، على
 ظهر زورق تقدم لصاحبه ما استطعت أن تستدينه من مال عند أهلك،
 مع إدراكك العميق أنك في أغلب الظن ستقضي بين الأمواج لتحتمل
 بك الأسماك أيما احتفال. وإن وصلت منهكا إلى الضفة الأخرى حيث
 حدود الجنة الموعودة فبقية حكايتك لن تكون وردية كلها. ولكي
 لا أنسى، لكي لا أتعثر ولا أفقد الأمل، وضعت صورة أُمِّي مقابل
 سريري.. نعم صورة أُمِّي البائسة المغلوبة على أمرها:

- ماديريش كيفي يا زوخا بنتي.. كوني امرا نتاع الصبح.. كوني

امرا وراجل.

هكذا كانت أمي توشوش لي والدموع في عينيها، كلما ضاقت بها الحيطان الستة.

صورتها هنا مقابلي بعينين كسيرتين، تحفزني كلما شعرت بالإحباط وأحسست باللاجدوى من إصراري على الخروج منتصرة في حربي ضد البطالة، فكانها هي من تأخذ بتلابيبي، وتعدل وقفتي، وتدعم عمودي الفقري وتدفعني كي أثبت خطاي، فلا أنثني عن الجري وراء حلمي في تحقيق ذاتي.. كل صباح صورة أمي الصامته المنكسرة، تدعوني للنهوض، للحركة، لإثبات الذات، للكلام والتعبير عن ذاتي بحرية.. وتدعوني أن لا أترك مصيري يشبه مصيرها.. أليس هو ذاك حلمها.. أليست هي تلك وصيتها لي:

- زوخا.. زوخا.. ماتكونيش كيما أنا...!

تذكرني صورة أمي لا تنطق عن هوى وهي المعلقة في صمتها، صورة أمي المقابلة لسريري، تذكر أن الحياة التي لم تمتلكها، لا بد أن أفتكها، أن تكون ملكي أنا. مثلما هي ملك لغيري.. وتدفعني كي أنهض وأترك سريري لأن أغلب الأحلام القابلة للتحقق هي تلك التي نمارسها خارج السرير.

- لا تهتمي أمي.. وعدا مني لن أترك يوما يمر دون أن أجري وراء حظي..

وجدت عند الحاجة عذرا الصورة المبهجة للمرأة، العكسية المقابلة المناقضة لصورة أمي، الحاجة عذرا على الرغم من سنها فهي تبدو أصغر بكثير من أمي. إلا أنني لمست لديها حكمة مجربة. عذرا امرأة ذكية ومقاومة لكل صنوف الضعف هكذا تبدو. لا أدري من أين تأتي بكل قوتها تلك، والطاقة التي تفيض منها حتى توصل

لنا عدواها، فأراني ونسيمة وباية، كلما حضرت مع بداية المساء، إلا وتفجر في دواخلنا ينبوع فرح صاف رقيق، يروي صدورنا ونشعر أن العالم ليس سيئا كله، وأن هامشا من الأمل يختبئ في مكان ما ينتظر أن نكتشفه ثم نلتقطه.

نعم لقد افكتك الحاجة عذرا هذه الطارقية الآتية من مسكن الشمس إعجابنا ثلاثنا، فلم نعد مجرد مستأجرات مؤقتات غريات لشقتها، بل أصبحت بالنسبة لنا مثل الدليل الثمين البار، مثل البوصلة التي لا تخطئ.

تأسرني قدرة الحاجة عذرا على إشاعة الفرحة حولها، وتمكنها من أن تكون دوما ايجابية، أن تكون عملية، قابضة على لجام المصير، لا وقت للتأوه ولا مكان للشكوى.

في «قعدة آتاي» الماضية حدث أن تكلمت، وشرحت حلمي بشيء من التفصيل في الحصول على عمل والحياة الكريمة، كنت سعيدة وأنا ألون لوحة حلمي أمام الحاجة عذرا ونسيمة وباية، كلمتهن عن مبتغاي في سياق أحاديثنا التي صارت أكثر صراحة، تتعمق يوما بعد يوم وتصبح أكثر عفوية وصدقا وأريحية، نسيمة التي تحلم أن تصبح فنانة معبودة جماهيرها وباية المنظوية المتوارية دائما خلف صمتها، لا تبحث عن عمل بقدر ما تحلم بالزواج تخاف من العنوسة، ولا شيء ينغص حياتها سوى أعوامها السبعة والثلاثين.

ودون أن أطلب من الحاجة عذرا شيئا، رق قلبها لحالي، سلمتني البارحة بطاقة أحد المسؤولين الإداريين الكبار الذين تعرفهم عن طريق وزير جار لها في نادي الصنوبر وصديق عبده زوجها السابق..
- قلبي له، جئتك من طرف الحاجة عذرا وما تخافيش.. خيرنا

فيه سابق..

- أليس له اجتماع آخر قلت في نفسي؟
استقبلني بكل حرارة بعد أن علم أنني جئت «من يد» الحاجة
عذرا، «من طرف» معالي الوزير «س».. كما أوصتني.
- مرحبا بك.. مرحبا بك.. كل شي ساهل كل شي ساهل.. إن
شاء الله خير

طال حديثه واستطال، مدح كثيرا معالي الوزير «س» ولم يترك
فضيلة إلا وألصقها به..

أدركت أن الوزير «س» شخصية مهمة جدا في الحل والربط
وربما يريد أن يقايض خدمته لي بخدمة أخرى منه لم يفصح عنها.
استمرأ حديثه إلي بشهوة لا تقاوم.. لا شبيه لها سوى شهوته
البائنة للسلطة. كان خلف مكتبه الكبير، بينما كنت أجلس قبالة في
الجهة الأخرى من المكتب، أبدو نشازا بسروالي الجنز وحذائي
الرياضي وقد لطف الهندام بقميص أبيض ومعطف لأسود. أبدو
ضئيلة وسط الأثاث الضخم الفخم. كان لا يراني، كان يرى من خلالي
الوزير «س»، أحيانا ينظر في وجهي، ليتأكد أنني أتبع ما يقول وأحيانا
أخرى يغيب في منولوج طويل، عن موضوع دفاعه المستميت عن
حرمة السلطة. وقصة انتقامه من ذلك الصحفي المتعتر الذي كتب عنه
مقالا في جريدة وطنية بالفرنسية، ينتقد قادحا الحفل الذي أقامه على
شرف الوزير «س» في مدينة بالجنوب حيث كان واليا عليها آنذاك.
- أوقفته عند حده ابن الكلب. نحن نحكم.. نحن لا نلعب
ولا نرقد.

قالها وهو يركز على أسنانه بكثير من الحقد وكأن الأمر يحدث

الآن.

- أتعرفين أنه كتب مقاله المسموم ونشره حقدا على نجاح حفل الاستقبال التاريخي الذي أقمته على شرف معالي الوزير «س».. تصوري.. على الرغم من أننا استقبلناه مع بقية الصحفيين الآخرين في الفندق الكبير هناك، بخمس نجوم، إلا أنه أكل الغلة وسب الملة.. لماذا لم يفعل مثل أسياده، مثل غيره من الصحفيين الذين كتبوا مطولا عن جمال الحفل، ونجاحه، وكثرة أكله ووفرة شرابه، لماذا لم يتطرق إلى الحدث الهام المتمثل في وضع معالي الوزير «س» لحجر الأساس لمشاريع جبارة مستقبلية كثيرة هنا وهناك.. الأمر الذي أذهل الجميع، إلى درجة أن إحدى الصحف كتبت قصيدة شعرية بالمناسبة ونشرتها في الجريدة الغراء، وبدوري أمرت بقصها وإرسالها إلى معالي الوزير «س» ليطلع على أصدقاء مدى نجاح زيارته والاحتفال بقدمه.

انفجرت أساريه فجأة على ذكر القصيدة، صمت قليلا، ثم ما لبثت أن أخذت ملامحه صورة صرامة قصوى:

- أولا اتصلت بمدير الجريدة، كلمته.. الحق يقال كان متفهما جدا، تأسف لهذا العمل الجبان واعتذر لي كثيرا ومطولا، وقال إنه من الآن فصاعدا لن ينشر مقالا عما يحدث في ولايتي، إلا بعد أن يرسله إلي لكي تطلع عليه مصالحي فتصححه، وتضيف إليه ما تشاء وتحذف منه ما تشاء.. وأقسم لي إنه لن يمر مقال فيه أي نقد سلبي لولايتي وسيهتم بالأمر شخصا.. ثم اقترح أن تكتب مصالحي مقالات وتبعثها إليه فيتم نشرها باسم أحد مراسلي الجريدة.

- مكانش مشكل..

كانت مكالمتنا طويلة وأخوية وتعاونية.. قال ضاحكا.. لكن طلبتي كان واضحا وحاسما.

قلت له:

- عليك أن تطرده من الجريدة، بعد المكالمات مباشرة كتب وثيقة فصله.. طرده للتو، لم تعمر الجريدة طويلا فقد تم إغلاقها نهائيا، الأمر طبيعي.. كانت عليها ديون كثيرة من مطابع الدولة، آن الأوان أن يعيد للدولة مالها!!

لا.. لم أكتف بذلك.. لا.. أنا لحمي مرّ.. كيف يجرؤ هذا الجرو أن يكتب عني وعن معالي الوزير «س» مقالا مثل ذلك: كلفتُ أحدا لبحث في ملفه الشخصي، فتوصل بتحرياته الشيطانية إلى أنه ليس ابن شهيد، كما كان يدعي ويفتخر ويتفخ، بل ابن حركي، عندها اتصلت بزميلي والي المدينة التي يسكنها، إنه رجل جيد في الحقيقة ووالي ممتاز وبيننا معرفة قديمة، وبيننا خبز وملح.. فتدبر أمره وطرده من المساكن الخاصة بأبناء الشهداء فذهب هو وأبناؤه للسكن عند أخيه.. لم يبرد قلبي بعدُ من فعلته السوداء تلك.. التي أغضبت معالي الوزير «س» الله يحفظه. ولمعاقبته أكثر، تابعت أخاه الذي كان يعمل في جلب الأقمشة والسلع المهربة من سوريا واسطنبول، إنها قضية مشكّلة وعويصة تكفل بها أحد معارفي الشداد من مسؤولي الجمارك.. فاضطر إثرها إلى بيع بيته.. عندها، تأكدت أنه سيُرْمى به إلى الشارع مرة أخرى. ثم انتهى في السجن بعد أن وقع شيكا دون رصيد، بخلفية حكاية طويلة أخرى، تفتنت لها لجنة المتابعة التي شكّلتها لتأديبه.

بين الفينة والأخرى كان يقطع حديثه بـ:

- سلمني لي على معالي الوزير «س» لا بد أنه يذكر هذه القصة أو جزء منها.

كان قلبي منقبضا، لا بد أن الحاجة عذرا لا تعرف هذا الشخص «المهم» كما يجب.. كنت أنظر إليه بقرف.. كنت أشعر أن عيني

فارغتين، أشعر بمعدتي تتقلص، خشيت أن أقتياً في وجهه، ولكنني تمالكت نفسي وتريثت قليلاً ثم ابتسمت بلؤم أنثوي.. قلت له:

- كل هذا من أجل مقال لا معنى له لا يقدم ولا يؤخر.

- شوفي.. (رافعا سبابته) هو درس له ولأشبابه.. عمر داوود ما يعاود.. لا بد من حماية حرمة السلطة.

قالها وهو يشير بسبابته إلى صورة «الحاكم الأوحده» الكبيرة المعلقة بعناية خلفه في واجهة مكتبه.

- شوفي الآن لا أحد يستطيع أن يكتب عني مقالاً سيئاً، كل صحفي يحاول أن يلعب بذيله أو يسيء لي أوللحاكم الأوحده ولمعالي الوزير «س» أو يتناول على حرمة السلطة، فسيدير لسانه ألف مرة في حلقة قبل أن يجرؤ. نعم لا بد من درس كبير وعبرة لمن يعتبر وإلا ستفلت الأمور وتستشري. انظري، انظري.. كان يورق الجرائد أمامي التي كانت على طاولته..

لاحظت أن ليس هناك ملفات، بعض أوراق فقط فوق مكتبه.. بينما هو يتحدث إلي، كان يميل إلى الجانب الأيمن من المكتب فيضع الورقة تلو الأخرى في ماكينة فرم الورق.. يبدو أنه يستعجل إنهاء كل المعاملات، ثم يمررها في آلة تقطيع على يمين كرسيه، ينظر إلى الأوراق وهي تمر عبر مقصلتها بعيون نافرة من لذة مبهمه.. ما الذي حدث له يا ترى حتى أصبح يخاف من الورق؟ من أي شيء يختفي أو يحتاط؟

مد لي كومة جرائد اليوم التي كانت فوق مكتبه:

- خذي سأسلمك هذه الجرائد أقرئها بهدوء في بيتك، مقالات كلها مدح وشكر وعرفان، وتعداد خصالي وميزاتي وفضلي وبركاتي على هذه المدينة وتبجيل لمعالي الوزير «س» ولفخامة الحاكم

الأوحد. لو أنني لم أكن صارما مع ذاك المتنطع لاستصغر البقية من شأني وبأسي، ولواصلوا في قلة أدبهم. شوفي إنهم يتسابقون اليوم من أجل نشر مقالاتهم في مدحي ومدح غيري من الولاة والمسؤولين.. لا بد من عبرة لمن يعتبر. لا بد من وجود الصارمين مثلي.. أنا أؤدبهم وأعلمهم الصلاح.. كل هذه التضحية من أجل هذا (يشير إلى صورة الحاكم الأوحد)، عيب.. كيف..؟ ألسنا نحن الذين نتعب من أجل الشعب.. حفلة استقبال واحدة تكلف مئات الملايين، ومئات العمال، وعشرات الأيام من العمل والضغط النفسي، ثم يأتي جربوع لا قيمة له يكتب وينشر ما يريد ويتنقد كما يحلو له.. لا.. أنا سأعلمهم جميعا أن يعيدوا التفكير وترددوا سبع مرات قبل أن يكتبوا عن أسيادهم.. سأعلمهم أن الأسياذ أسياذ والعبيد عبيد..

لم أخبر الحاجة عذرا بكل ما جرى.. لم أرد تسميم أجواء «قعدة آتاي» المؤنسة.. لن ألوثها بحديث الكراهية..

قلت في نفسي سيلتقون ذات مساء قريب في ممرات نادي الصنوبر الخضراء، وسيخبرها ويخبر معالي الوزير «س» أن الأنسة التي جاءت إلي من طرفكم، قد وظفت وانتهت مشكلتها مع البطالة.. وكيف لا وطلباتكم أوامر..

كنا أنا وسمية وباية نصغي بكل ما أوتينا من آذان إلى حديث الحاجة عذرا عما يحدث في جنة الصنوبر، في جنة خلد تقع في الجهة الأخرى من المدينة.

باب سماء سمية الصماء

- جيبى الكاس زوخا..

أقرب الكأس الفارغة فتصب لي من جديد شايبها الذي يعبر
الحلق والصدر مثل دواء سحري وتتغلغل رائحته حيث مكان الروح.
فكرت.. آه لو كان لعذرا ولد أو بنت كل هذه الأمومة ووفىض الحنان
يهرقان سدى.

- ربي يعطي الفول للي ما عندو ضراس..

رن في رأسي صدى مثل شعبي كانت جدتي تردده كلما سنحت
فرصة جيدة لأحد ما فلم يعرف كيف يستغلها.
محظوظات أنا وسمية وباية قدرنا الجميل الرؤوف جعلنا نلتقي
بالحاجة عذرا..

تستمع إلينا بكل جوارحها، وعلى الرغم من محياها البشوش
إلا أنني ألمح بريقا حزينا يرقد في عمق عينيها، يطل من حين لآخر.
أستمع إلى آهة تفلت من صدرها أحيانا نادرة أخرى، لا تلبث أن
تلحقها بضحكة أو ابتسامة، ربما لا تريد أن تزيد من ثقل كاهلنا وهي
العارفة أننا نحتاج إليها، لقوتها.

لن أنسى ذلك المساء حين جاءت الحاجة عذرا وهي تحدد لنا موعدا جديدا نذهب فيه جميعا إلى نادي الصنوبر.. كانت الحاجة عذرا تحمل ملفا سلمته إلى سمية ثم قالت لها:
- ورينا حنة يدلك..

فتحت سمية الملف بتردد ثم بلهفة، ثم فغرت فاها.
من أجل سمية فكرت الحاجة عذرا في كل شيء.. في بطاقة السفر إلى دولة عربية، في الإقامة عند صديقة لسعدة أخت عبده، في الموعد المنشود، مع منتج معروف وفرقة موسيقية لها حضور إعلامي متميز.

لم تتمالك سمية مشاعر سعادتها العارمة، بكت من فرحتها، وهي تحضن الحاجة عذرا..

يا الله كم يضيء الفرح جمالا على الإنسان.

- الفرح يزيّن والهَمّ يشين.. هكذا كانت تقول أُمي.

فقدت سمية السيطرة على نفسها في إحدى جلسات «آتاي» الأخيرة، فتحدثت بعصبية وهي تكاد تختنق.. لم أر سمية في هاته الحالة من قبل أبدا.. سمية الرقيقة، لا تسكت الأغاني والموسيقى في غرفتها أبدا، ولا تتوقف عن الدندنة حتى أنها أحيانا تغني لنا مقاطع جميلة من أغان كلاسيكية معروفة.. صراحة لسمية صوت عذب جدا. كل همها البحث عن قنوات الغناء والموسيقى وأخبار نجوم الطرب في الشرق والغرب، تريد أن تظهر دوما بمظهر المتأنقة في حركاتها وسكناتها حتى أصبح التأنق في كل شيء طبيعة ثانية في شخصيته.. جعلها الأنيقة تنطقها بنبرة عليها مسحة العذوبة والشفافية سمية تريد أن تصبح نجمة في عالم الغناء وتعتبر مرورها من هنا، ليس إلا عبورا إلى أحلام المجد التي تراودها. تبحث عن لقاء يفتح لها باب الحظ..

وتنتظر ذلك كل لحظة. سمية مسكونة بالغناء ولها ثقافة واطلاع على أخبار أهل الفن والطرب. تعرف كل صغيرة وكبيرة عن النجوم، حتى أنها ذات مساء قصت علينا حياة المغنية الأمريكية «ماريا كاري» كاملة بتفاصيلها ووقفت عند الصعوبات الجمة التي تعرضت لها، وعثراتها ومآسيها قبل أن تصبح نجمة شهيرة. وعلقت في النهاية قائلة وكأنها تعزي نفسها:

- ماكانش حاجة ساهلة في الدنيا.. حتى هي تعذبت بزاف.. تركت سمية بيت العائلة لأنها لم تجد تفهما وتشجيعا لحلمها بعد أن وقف جميع أفراد عائلتها ضد رغبتها العميقة أن تصبح مطربة.. التقاليد لا تسمح وشرف العائلة لا يجيز. المطربة في الأعراف رديفة العاهرة.. والشارع نفسه يكرس صورة المرأة الفتاة السهلة اللعوب. ضربها أخوها وعيرها بأقبح النعوت، بعد أن رفضت زواجا مرتبا من العائلة من قريب توفيت زوجته تاركة أربعة أطفال.. يريد امرأة تأخذ مكانها..

تهديد أخيها كان واضحا.. أخوها أيضا بدون عمل، انتمى مؤخرا إلى حزب ديني متطرف، يتوهم أنه سيقطب العالم رأسا على عقب ويفتح أبواب الجنة لمنتسبيه:

- واش حبيتي اديري لنا هيفاء وهبي.. والله غي نذبح لك أمك..

معقول.. إنها حياتي أنا وليست حياتهم.. لكل منا حياته، فلماذا يمد يده إلى حياة إنسان آخر ويسرقها منه.. بأي حق؟
أنا سمية.. لن أذعن لهذا الواقع التافه.. أريد أن أكون مطربة تدوخ طلعتها وصوتها العالمين.. وهذا هو هدف حياتي الذي لن أتخلي عنه.. لن أتخلي عن حلمي أبدا.. أنا سمية وما أدراك ما

سمية.. سأغير إسمي السلس هذا إلى «سلسيل».. جميل سلسيل
«الفنانة سلسيل» أليس مدهشا..

منذ البدء كنت أحلم أن أكون مثل وردة.. في المدرسة لم أكن
أعرف وأحسن شيئا آخر غير الغناء، ولكن هذا العالم لا يعرف قيمتي
لا يعرف قيمة الأشياء الثمينة.. سيسمعون بي كثيرا.. والله سيسمعون
بي وسيعضون على الأصابع..

- أنا سلسيل مطربة العالم، مطربة العصر.. سيكون لي المجد
والشهرة.. أملك ما لا يملكه غيري من الفتيات.. أملك جميع العناصر
والشروط التي تجعل مني فنانة كبيرة... ثم من قال إنني أريد أن أبقى
هنا.. تمرمدت كثيرا في تلك المدينة الغولة.. الأحق من يفكر أنه
سينال اعترافا هنا. شوفوا الفنانة «صباح الصغيرة».. مسكينة.. كانت
جميلة وذات صوت رنان، وبعد مكابدة مع واقع يرفض التميز والخروج
عن القطيع، وبعد مكابدة التجاهل والنبد المقيت، أصابها القلق بأخطر
أمراضه، فأهملت ولم تجد قانونا يحميها، أو يساعدها على مقاومة
مرضها بكرامة، كيف لها أن تجد من يحفظ لها ماء وجهها في عالم
لا ماء في وجه من يحكمه، رحلت المغنية «صباح الصغيرة» الجزائرية
مهملة وهي في عز عطائها.. سيكذب عليك من يقنعك أنك ستصبح
على ما تحلم به في هذا البلد.. كل الذين اشتبهوا هاجروا وفرضوا
الاعتراف بهم من الخارج. أريد أن أسافر أن ألتقي مع من يقدر صوتي
وموهبتي ويدفع بي نحو المجد، نعم هربت وسأهرب من أي قيد يريد
أن يثني عن الوصول إلى حلمي الكبير. وإن قدر لي فسأوريهم..

كنتُ وباية نستمع إليها مستغريات خروجها عن صمتها بهذه
الشجاعة الفاصلة، هي التي منذ البدء لم تكن تبين عن تدميرها سوى
اليسير.

كانت الحاجة عذرا تنظر إليها صامتة، لم تتوقف سمية عن الكلام لحظة، وكأنها تريد أن تفرغ ما في قلبها دفعة واحدة وترتاح، كأنها تريد أن تتطهر وتصفو وتتهيا لشيء آخر ينتظرها، تريد أن تمتلئ بالأمل من جديد.

- أعرف أن لا أمل لي هنا، على كل حال أعتبر مروري من هنا ترانزيت.. أبحث عن أي عمل أستطيع جمع مال منه يكفي ثمن السفر.. لكن أخشى أن يضيع مني الوقت لستُ صغيرة، خمسة وعشرون عمري، المطربات يبدأن صغيرات عادة، والانتظار ليس في صالحني. لست أقل موهبة من هؤلاء المغنيات اللواتي يملأن بأصواتهن الضعيفة الشاشات ويتبحرن بصراخهن وأنينهن ونشيجهن. لست أقل فتنة وجمالا منهن، وجهي ليس أقل جاذبية ولا انسجاما من وجوههن الكالحة المملوءة بسم البوتوكس، سأكون سيدتهن جميعا بصوتي الجميل، وبمفاتني التي أعرف كيف أشهرها في الوقت المناسب.. على أية حال لا بد من الصبر.. سأنتظر الفرصة المواتية للانطلاق، أتعرفن يا بنات بأنني لا أثق في الإدارات الرسمية هنا.. مللت صغائر وكبائر وتفاهات وعقد مسؤوليها، ولا أثق أبدا في وعودها.. سأجرب حظي بعيدا عنها..

حين استلمت قبول مدير إذاعة المنطقة باستقبالي، فرحت جما وامتلا قلبي بالتفاؤل.. انتظرت الموعد بفارغ الصبر وملئه، وارتديت ما كان لدي من جميل اللباس، وجلست في قاعة الانتظار.. وبعد ساعة أو أكثر، جاءني سكرتيرته وهي تلوك علكتها بتقزز، وتنظر إليّ من التحت إلى فوق ومن فوق إلى تحت لتقول:

- إرجعي غدوة.. المدير راهو مشغول بزاف اليوم!!

وبينما أنا أبلغ مرارتي وأستعد للمغادرة إذا به يخرج على غفلة

من مكتبه فاصطدمت عيناه، عينا الثعلب بي.

- ادخلي.. قالها باردة.. وكأنني جئت أتسول عند باب داره.

مكتب واسع، صالونه الفخم لا تنسيق فيه ولا ذوق، هكذا خمنت لأول وهلة، كان يلبس ساعة ذهب كبيرة واسعة الدائرة، يرفعها كل حين وهو يدير معصمه، عيناه صغيرتان حادثان جداً، تدوران في محجريهما مثل دودتين محصورتين، كنت أتساءل هل لمثل هذا أن يفهم في الفن؟! كنت أعلم مسبقاً كما يروج في مدينتي أن المدير العام هذا ظهره مسنود بقوة، لأن صهره شخصية قوية جبارة متمركز في هرم السلطة.

جلس خلف مكتبه واستوى، كنت مرتبكة كيف أبدأ الكلام ومن أين.. ثم تنقل وجلس على الأريكة القريبة، وبينما كان ينظر إلي بإمعان زاد ارتباكِي، استجمعت قواي كلها وأخبرته بما جئت من أجل توضيحه، وطلب المساعدة في تحقيق حلمي في مجال الفن..

- كل شي ممكن يا..

قال رافعا حاجبيه في وجهي وكأنه يأمرني أن أذكره باسمي.

- سمية.. سمية.. السيد المدير.

هب نسيم فرح عابر خفيف في قرارة نفسي، وابتسمت قبل أن يضيف جملة التي صعقت لها:

- كل شي ممكن.. بصح كل شي يمر من هنا يا.. سمية..!!

كان يشير بسبابته إلى عضوه الجنسي.

لست أدري كيف نهضت مرة واحدة، مثل من اكتشف تحته

أفعى.. كأنه كال لي السباب، أو ضربني أو طردني..

خرجت من مكتبه مجهشة ببكاء مخنوق، تتبعني ابتسامة مأكرة

للسكرتيرة.. كانت تفرع علكتها.

- إيسوة سمية.. تهلاي لي في روحك.. بصح ورينا حنة يدريك..!!

قالت الحاجة عذرا باسمه وبنبرة امتزج فيها الجد بالهزل، وهي تحضن سمية للمرة الأخيرة.

تركتنا سمية لتلتحق في مشيتها الأنيقة وحركاتها المتناسقة ببقية ركاب المطار الدولي، كنا نتأملها عن بعد.

- فعلا.. إن لها أوصاف النجوم.

دمعات تنهمر من أعيننا ونحن نودعها في هذا المطار، كنا نتخيل النجمة «سلسيل»، ستعود ذات انتصار لها سيكون لنا ثلاثتنا، الحاجة عذرا وباية وأنا، شرف أول من آمنوا بها.

رجعنا رفقة الحاجة عذرا ونحن صامتات، كانت لمسة شجن، شعور أوسط بين الفرح والحزن ملأ قلبي..

يا لها الحاجة.. عذرا ما أطيبها وما أغربها وما أصفى قلبها.. يصعب علي أن أفهم ما يجمعها ويربطها بمعارفها هؤلاء.. أي عامل مشترك بينها وبينهم، أشرار وأنانيون وسيئو السريرة.

باب الرحيل.. طريق السراب

عادة قديمة، لا أذكر منذ بدأت تلازمي، تجعلني أتلهف إلى تسجيل كل ما يحدث حولي، فأكتب كل ذلك في دفتر مذكراتي...
لذة لا تقاوم.

حين أدخلو إلى نفسي ليلاً وأسترجع اللحظات الأكثر قوة وعمقا وإحساساً أعيد تشكيل اللحظات القوية العميقة المكثفة. يحلو لي أحيانا أن أسجل كل شاردة وواردة بما امتلأ به اليوم دون أن يعلم أحد بذلك..

كل شيء يشير في شهوة الكتابة، كتابة ما يحدث، كل كلام يقال أصوغه كما يحلو لي.. أشعر بلذة وممتعة وأنا أكتب وكأنني في عراك مع الوقت، وكأنني أخاف على الزمن أن يهرّب إلى جغرافية النسيان وأقاليم العدم ما نعيشه، فتتبدد أجزاء مهمة فينا.

أحس بحرية مطلقة وأنا أخط وأضع الفكرة تلو الفكرة، وأنا أبذل الحدث كيفما أشاء، وأنا أخون الحقيقة الواقعة أحيانا حين ألقي زهرها بالتمخيل الذي أخلقه، فيبدو أجمل من سابقه وأكثر دهشة.. ربما!!
ألتجئ إلى الخيال لأنه أبعد من أن تمتد له الأيدي اللثيمة،

فتعدل مساره وسرعته المجنونة.. أكتب مذكراتي وكأنني أمارس رياضة اليوقا، أخفي قليلا ولو للحظات عن الواقع الذي يجثم بكل كلكله على صدر الحياة فيحاول أن يخنقها..

الحمد لله إن الناس لا تعلم ما في القلوب، ولا تكشف ما في الصدور، فلا تقرأ ما يدور في عقلك، ولا تعرف سرّك ولا تدرك ما يجري ويتلاطم في علبه رأسك، ولا تفهم ولا تفك الهيروغليفا العجيبة الملتوية على جبهتك، وإلا لكانت الحياة عويصة.. نعم عويصة جدا.

لن تعود علبه رأسك المغلقة مغلقة.. ستمشي في الشارع وقد فتحت العلبه السوداء لرأسك على مصراعها، وكل ما فيها يترجرج ويخرج لسانه للناس في غفلة منك، تمر على رسلك قاصدا متاعب الدنيا، بينما الجميع خلفك يتغامزون أو يتأففون وهم يشاهدون ما يدور فيها، وعبثا تحاول أن تغطيها بكفيك.

من العسير جدا أن تمشي طوال طريق الحياة وأنت بيدين معلقتين على رأسك، تحاول أن تخفي ما في العلبه. تحاول جاهدا لَمّ الخيوط والأوراق المتناثرة الخارجة منها، والشرائط المتدلية من أطراف رأسك. جميع من يمرون بجانبك يقفون على أصابع أقدامهم، لكي يشاهدوا بتطفل ما يدور ويحدث داخلها. يسقط شيء ملون من العلبه، يتدحرج على الرصيف ثم ينزلق نحو الطريق، وقبل أن تسحقه عجلات السيارات، تلتقطه امرأة مسنة طيبة القلب تمد يدها لتعيده إليك:

- هوّد.. تقول لك.

تثني ركبتيك حتى تصبح علبه رأسك في متناول يدها تبحث بيدها بدقة عن مكان ما سقط منك فتعيده لك وتنصحك لوجه الله

وهي تلوح في وجهك بالشيء الملون الذي سقط منك، يلمع بين أصابعها:

- رد بالك يا وليدي.. لم يبق لك في مربع الشتم شيئا.. هذه الشتيمة الأخيرة الباقية سقطت منك.. الحمد لله أنني التقطتها سالمة.. أعيدها لك فحافظ عليها.

تطبّط بيديها على رأسك، تشكرها جزيلا، وتذكرها أن موسم التكاثر لفصيلة الشتائم قريب.

- آه.. نسيت يا وليدي.. أصبحت ذاكرتي ضعيفة.. الله يذكرنا بالشهادة.. بالسلامة يا وليدي.. ورد بالك على العلبة.. راها محلولة بزاف..

إيه.. لله حكمته في ذلك، حين أغلقها بإحكام وحكمة، لعله الوحيد والأول الذي فكر في حرية الإنسان وحماه من الإنسان نفسه.. أنت الوحيد الذي تعرف ما فيها.. فرّد بالك!!

- أنا فعلا مطمئنة.. فلا الحاجة عذرا ولا باية ولا نسيمة قادرات على الدخول إلى مغاليقي وأسراري.. إنها نعمة والله نعمة.. أجلس معهن بكامل جسدي، وأحلامي وأوهامي، وعقدي ونقائصي وضعفي وقوتي وهواجسي وأسراري ونكساتي، كصندوق محكم الغلق بسبعة مفاتيح، كل مفتاح مسكوك ومحفور بطريقة معقدة أيما تعقيد.. أحيانا يصعب علي أنا نفسي التفريق بينها في شتلة المفاتيح هذه..

نعم.. كم تغيرت.. تغيرت كثيرا

كنت أحب محمد عبد الوهاب، أصبحت أعشق باري وايت.. هذا الوسيم الذي يشبه صوته برقًا، يليه رعد ويليه هَرُّ مطر غزير.. كنت أحب أم كلثوم ثم هويت في هوى ويتني هوستن، تسري قشعريرة الموت والحياة في عروق من يسمعها حتى يدوخ، ولا يدري هل هو

على الأرض التي تدور، أم إنه يدور حول الأرض!!
- زوخا.. نقصي الصوت شوية.. الله يخليك.

هكذا تطلب مني كل مرة الحاجة عذرا كلما استوت جلستها أمام براد آتاي في الصالة، بينما صوت ماريا كاري يصدح خارجا من غرفتي، يشبه مزيجا من الرعد والزغرودة..

تعودت منذ صغري أن لا أستمع ولا أتمتع بالموسيقى إلا إذا كانت عالية في المذياع أو الفونوغراف.. وكأنني أريد أن أشرك في نشوتي بها جميع من هم حولي، ذاك أمر قرب بيني وبين سمية كثيرا سمية المسكونة بالإيقاع ومجنونة الغناء.

أقسم أن الحاجة عذرا لم تسمع هذه الأصوات من قبل، ولم تسمع عنها يوما.. وإن هي أصاغت السمع فستضحك ساخرة ربما، أو ربما العكس من يدري.. والله سأسألها ذات يوم عن رأيها فيها حين تكون مناسبة الحديث لائقة، أما الآن فليس منا من تستطيع أن تفعل شيئا آخر غير الاستماع إلى الأحاديث الأخاذة للحاجة عذرا.. لا أعرف كيف تأخذ بأنفاسنا منذ الجملة الأولى، كل واحدة منا تتصور نفسها بطلّة الحكاية على لسانها، ربما السر في ذلك أن الحاجة عذرا تأخذ الوقت الكافي لرسم شخصياتها حتى وكأنها تتجلى أمامي، أو تتلبسني أو أتلبس الدور فيها.. فأغلب أبطال ما يقع في المدن هم رجال وأغلب أبطال ما يحدث في البوادي هن نساء.

تذهلني طريقتها الصريحة الذكية حين تتطرق إلى الحديث عن الرجال.. «الذكورا».. كما تنعتهم دوما، ليتني عرفتها من قبل، ربما كنت استطعت أن أجيب على أسئلة مزمنة مثل الأمراض العصبية، على الأدوية الكيماوية والشعبية والنفسية.. كنت استرحت من القلق الذي طالما انتابني كلما اقترب مني شاب بعينين ذابلتين تقطر رغبة

ودهشة وضعفا، يحاول أن يسكب العسل في صوته وهو يخطب ودي، فينتابني شعور متناقض.. هل فعلا كلامه وهياته تترجمان ما بداخله، أم أن ما بداخله أخطبوطا جائعا وما به أبشع مما أسمعه وأراه من قصص حيوات وأحداث تتراكم حولي من ظلم الرجال للنساء.

أقرب من طالب ودي ثم أبتعد، أصدق تصنّعه للضعف والرقّة، ثم لا ألبث أن أكذب كلامه وهياته، أتركه يحوم حولي، ويحاول بشتى السبل الاقتراب مني دون أن يفلح من افتكاك انتباهي، وغالبا ما ينقلب عدوا لدودا يرميني بكل الصفات القميّة ثم ينساني أويكاد أو هكذا أعتقد..

- اللي ما يلحق العنقود يقول حامض.. كذا كانت تقول جدتي الله يرحمها.

فقدت ثقتي في الرجال.. تبخرت تلك الرومانسية وهذا يؤلمني، لماذا أغلبهم نرجسيون وأنانيون ولا أمان فيهم..؟ الحق كل الحق أن تتحدث الحاجة عذرا عنهم هكذا، وأن تفعل فيهم فعلتها، وأن تسخر منهم.. كأنها تنتقم لشعوب النساء قاطبة، لماذا يفعل الرجال بالنساء ما يفعلونه..

أسئلة لم تبرح عقلي الفتى منذ نزلت عندنا عمتي بدرّة، جاءت من قريتها إلى المدينة الكبيرة، التجأت إلينا بعد أن جربت كل الأدوية الشعبية التقليدية، وبعد أن وجهها طبيب القرية نحو عنوان طبيب معين. نزلت في بيتنا، كي تتمكن من زيارة طبيب كبير مشهور متخصص في العظام.

بدرّة امرأة جميلة جدا، هياتها البدوية البسيطة تجعلها قريبة من القلب، هادئة قليلة الحديث ومبتسمة دائما، رغم أن ألم ركبتها قد حفر بصماته على ملامحها السمحة، تحاول أن تخفي خلف ابتساماتها

تحمل أوجاع ركبتها التي تأذت إثر سقوطها أثناء عملها في الحقل، تورمت كثيرا عكس ما كانت تعتقده وتنويه من شفاء قريب. في غمرة الانشغالات اليومية بطفلها وبيتها وزوجها وحيواناتها وواجباتها الكثيرة ككل نساء البادية، كانت تنتظر أن تشفى وأن يختفي الورم، ظنا منها أن جسدها الشاب القوي متين البنية، ليست هذه الكدمة الصغيرة ما سيثنيه عن العمل، فاكثفت بتجريب الوصفات التقليدية.

لم يبرأ الجرح كما كانت تنتظر بدرة وتأمل، بل استشرى الورم الخبيث حتى كاد أن يشل ركبتها، كانت بدرة تشعر أن في الأمر خطرا ما، لم تعد تستطيع النوم، الألم الغريب يقض مضجعها، ومأكلاها، ومشربها. لكنها ظلت باسمة في وجه زوجها الذي لا يتوقف عن الشكوى والتبرم من قسوة عمله في الأرض.. الرجل الذي تحب، لا تريد ازعاجه بكثرة شكواها.. كتمت آلامها حتى لم تعد قابلة للكتمان.. ألم ورم الركبة الذي لم يعد يطاق لم يعد يسكت ليلا ولا نهارا.. شحبت بدرة كثيرا وفقدت من رونقها الكثير إلى درجة أن أمي حين رأتها صرخت..

- مالكي بدرة العريزة.. واش راكي اديري الرجيم كيما ناس المدينة؟؟

ابتسمت بدرة ولمحت دمعين في عينيها..

كان لا بد أن تنام بدرة في الركن الآخر من غرفتي.

تتوجع بدرة طوال الليل في صمت.. كنت ألمحها في الظلام تجلس في فراشها مثل شبح، كأن التمدد يزيدا الماء، تتكور مثل جنين تارة، أو تجلس واضعة يدها على ركبتها المسرححة أمامها تارة أخرى، كأنها تحاول أن تكتم أليتها، ومن حين إلى آخر ألمح ظل

رأسها يتلفت نحوي، وكأنها تخشى أن تزعج نومي، أنا المتصنعة النوم في الركن الآخر من الغرفة.

كأن ألمها الذي لا يطاق، يملأ الغرفة ويشحنها بضغط قوي، يصل حتى فراشي، مثل سم يسري في عروقي، مثل رعب لامثيل له. وأنا أتصنع النوم العميق كانت دمائي تتجمد وكأن بي حمى باردة، فتسارع نبضات قلبي. أكاد أسمع نشيج بدرة المخنوق، كانت تبكي بصمت، لمحت حركة يدها من تحت غطائي، وهي تمسح دمعها بظهر كفها في الظلام، ثم اعتدلت في جلستها وقد وضعت يديها على ركبتيها الموبوءة تنظر إلى الفراغ الأسود الرهيب عبر النافذة التي تركتها مفتوحة قليلاً.

تعبت.. لست أدري كيف نمت وسط ثقل السواد والرعب وطاقة الألم الضاغطة التي سادت غرفتي.

لم أستيقظ إلا مع بداية بزوغ خيوط الفجر، فتحت عيني بالكاد، كانت بدرة تنظر خلف زجاج النافذة المنفرجة، كأنها تهزّب نفسها إلى الخارج وقد طوت ركبتيها، منحنية الظهر كأنما تفر من ليل طويل سجنها في وحدة قاتلة، وهواجس وأفكار مشتتة موحشة.

- صباح الخير زوخا.. رقدتي مليح بنتي؟

- صباح الخير خالتي بدرة..

يا ترى.. هل كانت تدعو لنفسها بشفاء يكاد يكون ميؤوساً منه،

أم ماذا؟؟؟

فيم كانت تفكر بدرة؟ أفني معجزة من السماء تقضي على محتنها في رمشة عين، يتقلص الورم فجأة، يتناقص حجمه، يخففي لونه المزرقّ المخضرّ القبيح، تتجلى الركبة ملساء أنيقة، تقف بدرة

مبهورة وترفع كفيها إلى السماء تشكر خالق المعجزة؟ أم تراها تفكر في طفلها، أم في زوجها، أم في نساء القرية وفتياتها، تمر وجوههن وأجسادهن، واحدة تلو أخرى في مخيلتها، بتفاصيل ملامحهن. من منهن ستأخذ مكانها وفراشها وأحضان زوجها، كيف ستعامل مع طفلها، وخزانة ألبستها وأواني مطبخها، وذكرها.

هل سيضحك زوجها بعينه اللامعتين وهو يتطلع إلى وجه زوجته الجديدة مثلما كان يفعل معها في أيام زواجهما الأولى؟
هل سيلاعبها مثلما كان يفعل؟

هل سيقوم باكرا لمشاهدتها بينما هي تهيء القهوة والفطور؟
هل سيفتح المذياع باحثا عن أغنية مرحة، ثم لا يلبث أن يمد يده يدسها في شعرها؟

هل سيساعدها، فيحمل السينية إلى مائدة الصالة، كل ذلك ووجهه لا يفتأ مبتسما..؟

ربما استأجر أحدا، يدفع له ثمن الاهتمام بالبقرة والدواجن في مزرعته الصغيرة، كي لا يصيب زوجته الجديدة ذلك المكروه مثلما حدث معها.. المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين..؟

ربما غير عاداته، فأصبح يرجع إلى البيت باكرا، كي يجلس إليها ويؤنسها، ويظل ينظر إليها، ولا يشيح بوجهه عنها أبدا.

سيقلع حتما عن عادة التذمر والشكوى والتأفف، بكلماته القلقة المتقطعة، وهو يلعن انشغالاته ومشاكله خارج البيت.

سوف لن يكسر خاطرها، سيسليها ويسعدها، ويدللها، ويشعرها أنها الوردة الوحيدة في القرية، بل على الأرض.. ربما أخذ يدها بين يديه ونظر في عمق عينيها وشكر الله في عمقه:

- ما حدث للمرحومة بكرة قضاء وقدر.. وعسى أن تكرهوا شيئا

وهو خير لكم..

سترتخي أساريه وتنطلق، وستعود ملاحه ملامحه، وسترجع ضحكته المجلجلة ببحثها الفاتنة.

بدرة لا تريد أن يُبتر ساقها، لا تتخيل نفسها بساق واحدة، مهما كان، كيف ستبدو أمامه؟ لا تريد شفقة منه، وربما شفقة زوجته الجديدة، من يدري ربما فكر الزواج بثانية.. بما أنها ستصبح شبه مقعدة إذا ما حصل وبترت ساقها.. لا تتخيل نفسها تسير أمامه بساق واحدة تعرج، تركز على عصا أو اثنتين، أو على رجل اصطناعية، فتميل إلى اليمين ثم إلى اليسار.. أليس هذا مضحكا؟ ثم كيف ستطبق أن تشاهد ضررتها تتمايل أمامها ذهابا وإيابا تموج فساتينها، تهب الريح فيلتصق الثوب بها فتظهر الساقان منها، منتصبين مثل عودي خيزران، تلتفت إليها وهي تبسم بلؤم لتذكرها إن هي نسيت.. وكيف تنسى.. موحية لها أن السرير لا بد له من أربعة أرجل!!

أي امرأة ستضحى هي، حين ستصبح بساق واحدة.

- لا.. لا.. فإما الشفاء أو الموت.. إما أن تظل ساقى هذه معي في مكانها، بعد أن أشفى، أو أن أذهب معها.. والله لن تدفن ساقى قبلي..

هكذا كانت بدرة حاسمة، وهي تتحدث مع أمي..

أمي لا تفهم أو لا تريد أن تفهم ذلك، منطقها مختلف تماما.. كانت تحاول أن تقنعها بالتفكير في ابنها قبل كل شيء وأن تعيش له، يحتاج لها، ومن الأحسن أن تكون له أم بساق واحدة خير من أن يكون يتيم أم رحلت بساقين.

أطرقت بدرة قليلا:

- اطلبي لي الشفاء يا العزيزة.. إن شاء الله أشفى.. لن يكون

فخورا بأم مقعدة بساق واحدة.. سيتألم طول حياته وهو ينظر إلي
أتألم.. أنا أعرف سينادونه ولد «بدره العرجة». بدل «ولد بدره بدور
النساء».

ظلت بدره عندنا أياما، لم تعد تقدر على الحركة، نتيجة الألم
العظيم الذي سكن ركبته، وازداد واستشرس فجأة حتى كاد أن يشلها.
كانت تلم ساقها تحت ذراعها، وكأنها جناح مكسور كيفما حركته
يوجعها، ويذكرها أن الطيران ليست فكرة جيدة دائما، وأن الموت
ليست فكرة سيئة دائما.

لعله يوم صعب ذاك الذي قررت فيه بدره أن تعود إلى القرية
رافضة بتر ساقها كما اقترح عليها ذلك الجراحون.

قررت السفر مباشرة بعد عودتها صباح ذات اليوم من موعد
الطبيب الجراح. كانت تحمل مغلفا كبيرا، فيه جميع التقارير ونتائج
التحاليل والصور والمقررات الطبية.. جميعها كانت حاسمة وعازمة
على أمر واحد وعاجل وهو بتر الساق في أقرب وقت وقبل فوات
الأوان.

قد لا تنتظر درجة الخطورة طويلا، بحيث سيصبح الحل الوحيد
نفسه - بتر الساق من منبتها عند الحوض - غير مضمون العواقب، إن
لم يستعجل فعله..

لملمت بدره الجميلة جسدها النحيل المكلوم في الحائك
الأبيض المخطط بصفرة باهتة، لبست فردتي حذائها باهتمام بالغ
وبهدوء وبطء، لم أر في حياتي امرأة تنظر إلى فردتي حذائها بكل
ذلك الاهتمام وتلك المتعة.. المتعة المكلومة الموجهة..

وضعت بدره تحت إبطها المغلف البني الكبير الذي يحتوي على
حكم نهائي لقدرها، ودعنتا واحدا واحدا، ثم عانقت أمي بحرارة

شاكراً لها ضيافتها واهتمامها بها. كان وجهها الشاحب، تتألم أساريره كلما حاولت أن تبتسم، يبدو وكأن رغبة الحياة كلها اشتدت وتجمعت شرارتها في بريق عجيب يلتصق بظل من عمق عينيها، كأنه عصفور يختبئ هروباً من عاصفة.

خرجت بدرة لتركب سيارة أجرة عند مدخل العمارة كي تنطلق بها لتوصلها إلى القرية، دسّت ساقها معها في المقعد الخلفي، كانت تضع يداً فوقهما بحنان وتلوح لنا بالأخرى.. حتى غابت.

لم أر بدرة مرة أخرى في حياتي، سمعت أشياء كثيرة عنها من أمي وما تناقلته من أخبار عنها من معارفها من النساء.

علمت أن بدرة الوديعه المليئة بالحياة، المبتسمة دائماً، الصبورة، الهادئة، قضت بعد فترة قصيرة من رجوعها إلى القرية، تناقلت ألسنة النساء التي لا تنام، أنه قبل رحيلها كانت المترشحات لأخذ مكانها يتنافسن في السر، على من تحل محلها، وأن زوجها كان قد وقع اختياره على عروسه الجديدة في صمت حتى قبل دفن بدرة، وأنه لم يكن حزيناً في ماتمها بل كان يجهد ملامحه كي يبدو كذلك، وأنه لم يكن تعيساً تماماً في قرانه، بل كان يجهد ملامحه كي يبدو كذلك..

روايات كثيرة عن زوج بدرة تناقلتها النساء المثرثات مع أمي.. في غرفتي، ما زالت طاقة بدرة تملأ المكان، ما زالت ألحاح ظل شبحها أحياناً، وهي تتوجع في صمت تحت جناح الظلام، ما زالت أراها تتشبث بأسفل إطار نافذة غرفتي، تتعلق بأشعة الصباح الأولى، كي تغسل وجهها الشاحب بالضوء، وهي تلم ساقها المؤلمة مثل حمامة جريئة تجر جر جناحها المكسور، أو كأنها كانت تشعر بالنصر حين تستقبل يوماً جديداً بدأ في حياتها، ولم يخلها الوقت كي تراه، تصر أن تحتفل به وأن تكون أول المستقبلين لأشعته والناس نيام..

كانها تقدم له آيات الشكر والعرفان لمجيئه، ليذكرها أنها لاتزال على قيد الحياة وعلى قدرة للانتظار.
مرت أيام.. قلّ الحديث عن بدره، ثم لم يعد أحد يذكر بدره إلاي.

- يا الله يا بنات تصبحوا على خير..
بهدهوء، جمعت الحاجة عذرا الكؤوس ولوازم قعدة آتاي وضعتها فوق السينية النحاسية الكبيرة.. حملت الإمزداد إيدانا بساعة الذهاب إلى شقتها.
كأنني لاحظت شيئا غريبا.. كانت تحاول الوقوف بصعوبة بالغة..
كانها تريد أن تخفي ألما فظيحا بساقها. رأيت ملامحها تتشنج قليلا وهي تضع يدها على ركبته. ثم ما تفتأ أن تنصب صدرها ورأسها عاليا كي تخادع أبصارنا.
اختلطت الأصوات في رأسي.. هل حدث فعلا أن نطقت الحاجة عذرا تقول:

- غدا سأرحل إلى الصحراء يا بنات.
هل حدث فعلا أن سلمتني مغلفا كبيرا وهي توصيني بإيصاله لمسعود حارس فيللتها بنادي الصنوبر:
- زوخا.. روعي عند مسعود في الفيللا بنادي الصنوبر سلمني له هذه الأمانة.. الله يخليك..

هل حدث فعلا وأخبرتنا أنها كتبت الشقتين باسمي وباسم باية؟
هل أفضى لنا صوتها الجهوري، ترتجف حبات الرمل في ممراته، وهي تقول مغمضة العينين:

- أستهي أن أدس جسدي في الرمل.. أن أعود إليه..!

أم أن الطارقة الجميلة الطيبة خرجت كعادتها، يناغي رنين
أساورها الفضية رنين الكؤوس الفارغة المترنحة فوق السينية، يلوح
لنا الإمزاد مودعا يتسم تحت إبطها من أنس، بينما أثوابها العريضة
الهفافة تتطاير، تداعب الهواء، ماسحة على رؤوس كل الأشياء في
ممرها.. أغلقت بابنا بهدوء.. ليظل العطر المدهش يصرخ خلف أذني
الحكاية:

" دمة دمة من القلب للعين

سالت عالخين

نقشت عالوجه خطين

غيرت سواد العين

صبح للحبيب قلبين

وجهو رجع وجهين

غير الحال صفين

مدة الحال حولين

ينقسم قلبي نصين

نار و جمر لاهبين

سامع و شافت العين

لكن لا و لائين "

نادي الصنوبر

رواية



ربيعة جلطي

• روائية من الجزائر

وما كادت الحاجة عذرا تعبر من الباب الكبير،
حتى شعرتُ بتلاكم الكلمات على طرف لساني،
ولحت كوكو ينثني من الضحك وهو ينظر إلي
شامتا يومئ بلا صوت:

– عذرة العذاري ومسعود يا خسارة.

كلما مرت بي داخلة أو خارجة من باب فيلتها،
أنحني لها وأبتسم بقلق، لا أترك كلاماً طيباً إلا
وسبقت نفسي به إليها.. أسمعها الكلام المنتقى
باحترام، المنق الذي أرتبه مسبقاً في سري جملة
جملة، ووقعاً وقعاً.

حالما تختفي الحاجة عذرا عن عيني، أعض على
يدي ندماً. وقد تنبّهت إلى أنني أسبقت جملة على
أخرى، وأنني نسيت واحدة ربما كانت أهمها
جميعاً. لكنها تمر بسرعة دون التفاتة وكأنني
فزاعة جميلة من تبين.

مرات أخلو إلى نفسي وأنا مستلق على فراشي،
وقد طردت كوكو وأغلقت الباب، أكاد أرجع إلى
رشدي وأوبخ نفسي بكلام قاس حزين:

– أنت عساس يا مسعود ولازم تبقى عساس.

كيف لها أن تنظر أو تنتبه إليك، وتشعر بحالك،
وتفكر فيك وأنت الحارس المسكين لفيلتها بنادي
الصنوبر، وما أدراك ما نادي الصنوبر.

لوحة الغلاف:

بول غوغان، طبعة صامطة 1889

تصميم الغلاف: سامح خليف

مكتبة نوميديا 194

ISBN 978-614-01-0553-9



9 786140 105539

Telegram@Numidia_Library

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilaf
editions.elikhtilaf@gmail.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.asbooks.com



جميع كتبنا متوفرة في موقع **نيل وفرات.كوم** www.neelwafurat.com - www.nwf.com